

## الفصل الثالث

# شفيق جبري نائراً

ويتضمن المباحث التالية :

- ١ - آثاره النقدية .
- ٢ - فنونه النقدية :
  - أ - فن المقالة .
  - ب - فن السيرة .
  - ج - أدب الرحلات .
- ٣ - أسلوبه .

obbeikandi.com

## ١ - آثاره النظرية :

يعد شفيق جبري من مجيدي الكتاب ، كما عدّ من كبار الشعراء ، فجمع بذلك بين النثر والشعر ، فلقبه بعض الدارسين برجل الصناعتين<sup>(١)</sup> ، وعدّه آخر أميرا من أمراء النثر<sup>(٢)</sup> .

وماخوّلَه ذلك المقام الرفيع ، إلا كون أكثر مؤلفاته « جادة ورصينة ، تنطوي على جهد وتقصر ، ودراسة وتحليل ، بل إن بعضها يعد من حيث وقت ظهوره على الملأ ، وأهمية تأثيره فيهم ، بمثابة فتح جديد في دنيا الدراسات الأدبية في سورية »<sup>(٣)</sup> .  
وسوف أفصل الحديث في آثاره النظرية ، المطبوع منها والمخطوط ، وأشير إلى مقالاته وخطبه ورسائله ، منسقا ما طبع من كتبه بحسب تاريخ صدورها .

### ١ - المتنبّي :

هو في الأصل محاضرات ، ألقاها في كلية الآداب بجامعة دمشق ، ثم نشرت مسلسلة في مجلة المجمع العلمي [ بدءاً من المجلد العاشر ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٧١ ، إلى الجزء الثاني عشر من المجلد نفسه ، الصفحة ٧٣٢ وما بعدها ] ، ثم طبعت بعد ذلك في كتاب مستقل بعنوان [ المتنبّي مالى الدنيا وشاغل الناس ] عام ١٩٣٠م بدمشق .

ولقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة ، وتقديرا من الأدباء ، وعدّ ظاهرة جديدة في الدراسات الأدبية<sup>(٤)</sup> ، لكونه جرى فيه على التحليل والمناقشة لكل ما أثار جدلا في حياة المتنبّي ، كعروبيته ، وشعوبيته ، وعبقريته .

### ٢ - الجاحظ معلم العقل والأدب :

كان في الأصل محاضرات ألقاها في كلية الآداب بجامعة دمشق ، بدءاً من تشرين الثاني ١٩٣٠م ، وفرغ منها في أيار ١٩٣٢م<sup>(٥)</sup> ، ثم نشرت مسلسلة في مجلة

(١) انظر : صنّاع الأدب ١٣٥ .

(٢) انظر : عبقریات شامية ٢٤ .

(٣) صنّاع الأدب ١٥١ .

(٤) انظر : الأدب والقومية في سورية ٢٣٩ .

(٥) انظر : معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين ٩٣ ، عبدالقادر عياش ، دار الفكر ، دمشق ، ط الأولى ١٤٠٥هـ .

المجمع العلمي ، [ بدءاً من الصفحة الثانية والسبعين من الجزء الأول والثاني ، من المجلد الحادي عشر ، وانتهاءً بالصفحة ٣٦٢ وما بعدها ، من الجزء الخامس والسادس ، من المجلد الثاني عشر ] ، ثم طبعت مستقلة عام ١٩٣٢م بدمشق ، ثم طبعت مرة أخرى عام ١٩٤٨م بمصر<sup>(١)</sup> .

وربما كان تأليف هذا الكتاب محاولة لتفنيد دعاوى بعض المستشرقين ، الذين جرّبوا المسلمين من فضيلة البحث ، واتهموا الإسلام بمعاداة العلم ، « فحفز ذلك جبيري على الالتفات إلى البحث والتقصي »<sup>(٢)</sup> ، ويظهر أنه اطلع على رأي أحد المستشرقين الذي اتهم فيه منهج الجاحظ بالفساد والفوضى ، فكانت فصول كتابه ، بمثابة رد علمي مسهب ، ومؤصل على هذا الحكم<sup>(٣)</sup> .

ونال كتابه هذا من التقدير ، أكثر مما ناله كتابه الأول عن المتنبي ، وقبول بالثناء البالغ ، فحكم بعضهم بأنه برز من خلال هذا الكتاب ، باحثاً أصيلاً ، حين « كشف النقاب لأول مرة في العربية عن الجاحظ العالم »<sup>(٤)</sup> .

وقالت مجلة المقتطف في عرضها للكتاب : إن جبيري وفق في كثير من فصول الكتاب توفيقاً عجيماً جديراً بالاعتباط والثناء والإعجاب ، وإنه خلّف في بحوثه أروع الآثار<sup>(٥)</sup> .

وبالغ آخرون فحكموا بإجماع المستشرقين بعد أعلام النقاد في الوطن العربي ، على أن كتابه ، خير كتاب ألف عن الجاحظ<sup>(٦)</sup> .

وفي نظري أن الأولى في عنوان الكتاب ، أن يكون ( الجاحظ من خلال كتاب الحيوان ) ؛ ذلك لأنه يحيل في ثلاثة أرباع الكتاب أو أكثر عليه ، مكثراً من النقل منه ، والاستشهاد بما ورد فيه ، وقد صرّح بذلك - عَرَضاً - حين قال في الحديث

(١) انظر : المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) تأثير الغرب في أدب شفيق جبيري ، مجلة الثقافة ٢٩ .

(٣) انظر : المرجع السابق ٢٩ .

(٤) انظر : صنّاع الأدب ١٥١ .

(٥) انظر : مجلة المقتطف ، المجلد ٨١ ، الجزء ٣ ، الصفحة ٣٦٩ .

(٦) راجع الحوار الذي جرى مع سعيد الجزائري في مجلة الثقافة ٧٧ .

وانظر كلاماً شبيهاً بهذا في مقال ( شفيق جبيري شاعر الشام ) لخالد قوطرش في المجلة نفسها ص ٨٦ .

عن فنّ الجاحظ : « فكأن كتاب الحيوان ضرب من أحاديث في العلم والفلسفة »<sup>(١)</sup>.

### ٣ - العناصر النفسية في سياسة العرب :

صدر في القاهرة ، ضمن سلسلة ( اقرأ ) عام ١٩٤٥م ، ثم طبع مرة أخرى في بيروت عام ١٤٠٧هـ .

ويعد هذا الكتاب فريداً في بابهِ ، حيث يدرس التاريخ من الوجهة النفسية ، فيحلل الأحداث والأقوال والأفعال على ضوء ملاحظ نفسية دقيقة .

ووصف بأنه « أول كتاب من نوعه في اللغة العربية »<sup>(٢)</sup> ، وأنه « صورة منصفة لتصرفات بعض رجال التاريخ العربي »<sup>(٣)</sup> ، كما قيل عنه « إنه من بين تلك الكتب الموجهة ... التي في خير مايفذي الوعي العربي والإسلامي »<sup>(٤)</sup>.

والحق أن هذا الكتاب معدود في الكتب المتميزة ، وصاحبه - في رأبي - من رواد التحليل النفسي للنصوص التاريخية ، لأنه في هذا الباب باحث طلعة ، ذو ذهن يلتقط الملاحظات النفسية ، ويجيد التعبير عنها ، وزيادة على ما في هذا الكتاب تجد في أثناء كتبه الأخرى ملاحظ وإشارات فيها الكثير من عمق النظر في طبائع النفوس<sup>(٥)</sup>.

### ٤ - بين البحر والصحراء :

صدر في القاهرة ضمن سلسلة ( اقرأ ) عام ١٩٤٦م<sup>(٦)</sup> ، ثم طبع مرة أخرى في بيروت عام ١٤٠٧هـ .

وتدور فكرة الكتاب حول الموازنة بين أدب العرب ، وأدب الفرنجة ، حيث تضمن ثلاثة عنوانات ، يتفرع عنها مباحث قصيرة .

- 
- (١) الجاحظ معلم العقل والأدب ٢٥٢ .
  - (٢) من مقالة عن الكتاب بقلم محمد سعيد العامودي ، مجلة المنهل ، مج ٦ ، العدد ٤ ، ص ١٦٠ ، ربيع الآخر ١٣٦٥هـ .
  - (٣) من كلمة الريداوي في مجلة الموقف الأدبي ، العدد ١٠٧-١٠٨ ، ص ٢٣٦ .
  - (٤) من تاريخنا ٩٩ ، محمد العامودي ، دار الأصالة ، الرياض ، ط الثالثة ١٤٠١هـ .
  - (٥) انظر مثلاً : أرض السحر ١٠ و ١٩٣ .
  - (٦) انظر : معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين ٩٣ .

فالعنوان الأول : حس الطبيعة ، والثاني : الأدب النفسي ، والثالث : الأدب  
الوطني .

٥ - دراسة الأغاني :

صدرت طبعته الأولى في بيروت ١٩٤٨م ، وكان عنوانه ( دراسات في كتاب  
الأغاني ) ، ثم عدل العنوان إلى ( دراسة الأغاني ) في طبعته الثانية ، التي صدرت  
بدمشق عام ١٣٧٠هـ<sup>(١)</sup> .

حاول المؤلف في كتابه هذا « أن ينسق صورة الحياة الاجتماعية ، على نحو  
ماكانت عليه في العصور التي وصفها الأصفهاني »<sup>(٢)</sup> ، ولم يكن همه في هذه  
الدراسة تلخيص أخبار الأغاني ، ولكنه صرف همه إلى استخراج مادة يستعان بها  
على فهم الحياة في الماضي<sup>(٣)</sup> .

وقد عمد إلى تقسيم الكتاب إلى مباحث لا إلى فصول ، - مثلما فعل من قبل في  
كتابه عن المتنبي والجاحظ - فجاءت دراسته على هذا النحو : مقدمة الأغاني -  
موضوعات الأغاني - براءة ذمة أبي الفرج - العامة - حياة الكتابيب... وهكذا<sup>(٤)</sup> .

وحظي كتابه هذا ، بمثل ما حظيت به بعض كتبه الأخرى ، فوصفه أحد  
الدارسين بأنه « عمل سيظل نموذجا طيبا للرؤى الجديدة التي نطمح أن ننظر بها إلى  
تراثنا... »<sup>(٥)</sup> وهو « يشبه أن يكون إعادة بناء للوحة فسيفسائية محطمة »<sup>(٦)</sup> .

ووصفه آخر بأنه دراسة جيدة ، « قلما فطن إليها على هذا الغرار الكثيرون »<sup>(٧)</sup> .  
ولكنني أحكم على هذا الكتاب ، بأنه دراسة ناقصة ؛ لكونه بناها على الإكثار من  
النقول ، وإصدار الأحكام التي لاتصمد تجاه التمهيص ، وما اعتراها هذا النقص  
إلا من جهة الإعجاب الكبير منه بكتاب الأغاني ، حيث وصفه بأنه « الكتاب

(١) انظر : المرجع السابق ٩٢ .

(٢) أنا والنشر ١٠٨ بتصرف ، وأبو الفرج الأصفهاني ( ٢٨٤ - ٣٥٦هـ ) من مشاهير الأدباء ، أموي  
شيعي ، من مصنفاته الأغاني وإماء الشواعر وأيام العرب ، مولده ووفاته ببغداد ( الأعلام ٢٧٨/٤ ) .

(٣) انظر : دراسة الأغاني ١٩ .

(٤) انظر : دراسة الأغاني .

(٥) من مقالة د . شكري فيصل في مجلة الموقف الأدبي ، عدد ١٠٧ - ١٠٨ ، ص ٢٢٩ .

(٦) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٧) صناع الأدب ١٥٢ .

الخالد على وجه الدهر»<sup>(١)</sup> ، فأعشاه ذلك الإعجاب عن مواضع الخلل فيه<sup>(٢)</sup> ، كما أنني أظن أن اسم الكتاب لا يدل صراحة على مضمونه ، وكان الأولى أن يسميه باسم آخر أكثر ملاءمة لموضوعاته ، وهو « المجتمع العباسي من خلال الأغاني »<sup>(٣)</sup> .

#### ٦ - أبو الفرج الأصفهاني :

صدرت طبعته الأولى في بيروت ، عن دار المعارف ضمن سلسلة نوابغ الفكر العربي عام ١٩٥٥ م ، والثانية عام ١٩٦٥ م<sup>(٤)</sup> ، ثم طبع ثالثة في بيروت عام ١٤٠٧ هـ .  
ترجم جبيري في هذا الكتاب ، لأبي الفرج ، وتعرض لعصره ونواحي حياته ، ثم أورد منتخبات من آثاره ، وأغلب الظن أن هذا الكتاب تَمَمُّهُ للكتاب السابق ( دراسة الأغاني ) .

#### ٧ - محاضرات عن محمد كرد علي :

ألقاها على طلبية قسم الدراسات الأدبية عام ١٩٥٧ م ، ثم طبعت في القاهرة في العام نفسه ، وأعيد طبعها في دمشق عام ١٤٠٩ هـ .  
وفي هذه المحاضرات عرض لعصر محمد كرد علي وثقافته ، ومشاركاته الصحفية ، وبعض آثاره وأسلوبه .

#### ٨ - أنا والشعر :

هو في الأصل محاضرات ألقاها في معهد الدراسات العالية بالقاهرة ، ونشره المعهد بعد ذلك عام ١٩٥٩ م<sup>(٥)</sup> ، ثم طبع في دمشق عام ١٤٠٦ هـ .

#### ٩ - أنا والنثر :

وهو كسابقه ، كان في الأصل محاضرات ألقاها في المعهد نفسه ، وطبعه المعهد بعد ذلك عام ١٩٦٠ م<sup>(٦)</sup> ، ثم نُشر مرة أخرى في دمشق عام ١٤٠٩ هـ .

(١) أنا والشعر ٧٩ ، وفي هذا الوصف تجاوز وغلو .

(٢) انظر : آراء بعض الذين نقنوا هذا الكتاب ، في الفصل الرابع من هذا البحث .

(٣) انظر : مبحث ( موضوعات الأغاني ) في كتابه المذكور ص ١٦ .

(٤) انظر : معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين ٩٤ .

(٥) انظر : المرجع السابق ٩٤ .

(٦) انظر : المرجع السابق ٩٣ .

ويعد كتاباه هذان خلاصة تجاربه الأدبية ، وتاجين لكتبه الأولى ، وماسجله جبيري فيهما « يبقى متألقا ، فيه حرارة أنفاس الشخصية الأدبية ، ونبض إحساسها ، فالكتابان سيرة ذاتية من طراز خاص . . . ينضحان بكثير من الألق والطرافة »<sup>(١)</sup> ، كما أن فيهما نقدا ذاتيا ، يشتمل على اعترافات المؤلف وخصائص حياته الأدبية<sup>(٢)</sup> .

لقد كان جبيري ذا ولع بالكتب التي يتحدث فيها مؤلفوها عن أنفسهم وطبائعهم<sup>(٣)</sup> ، ولعله بأثر من هذا الولع كتب تجربته في الشعر والنثر ، وغالبا ما يكون تصوير الفنان لتجربته الذاتية من أروع الأعمال<sup>(٤)</sup> ، وهو ما نلاحظه بحق عند جبيري في كتابيه هذين ، فقد كان مزودا فيهما بالصدق والجرأة والصراحة ، وأضفى عليهما من أسلوبه سحرا وامتعة .

#### ١٠ - أرض السحر :

وصف فيه رحلتيه اللتين قام بهما إلى أمريكا عام ١٩٥٣ وعام ١٩٥٥ م ، وطبع في دمشق عام ١٩٦٢ م ، نشرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي<sup>(٥)</sup> .

#### ١١ - أحمد فارس الشدياق :

طبع أول مرة في دمشق عام ١٤٠٧ هـ ، وقد تناول فيه عبقرية الشدياق ، من حيث التبحر في اللغة ، والقدرة على التصرف في الألفاظ ، والتمكن من الوصف والتصوير .

\* \* \*

كما أن لجبري كتبا مخطوطة ، هي :

#### ١ - علي صنخور صقلية :

ويتضمن رحلته إلى أوروبا ، التي قام بها في تشرين الأول عام ١٩٣٤ م<sup>(٦)</sup> ، وقال عنها : « بعثرت مقالاتها في بعض الصحف والمجلات ، وهي مجموعة عندي ، ولكنها تحتاج إلى قليل من التنسيق »<sup>(٧)</sup> .

(١) صنّاع الأدب ١٥٢ .

(٢) انظر : اتجاهات النقد الحديث في سورية ١٨٥ .

(٣) انظر : تقرظه ل ( يوميات هالة ) ص ٤٦٠ ، مجلة المجمع ، مج ٢٥ ، ج ٣ .

(٤) انظر : صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر ١٧٢ .

(٥) راجع مبحث أدب الرحلات في هذا الفصل .

(٦) انظر : أنا والنثر ٨٨ .

(٧) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

٢ - أفكاره :

ويتضمن مقالات وأبحاثا ، وتعريفات لعدة كتب ، نشر أكثرها مفرقا في مجلات مختلفة ، ومن الكتب التي عرّف بها تاريخ مدينة دمشق ، وشرح ديوان الحماسة ، وطبقات فحول الشعراء .

٣ - دراسة عن شوقي :

ومما ضمّنها بحث النزعة الدينية عنده ، والنزعة التركية ، ووطنيته وروحه ، وتفسير بعض قصائده .

٤ - تفسير نصوص :

أشار جبري ، إلى أن له تفسيرا لنصوص طائفة من الكتاب والشعراء كإبراهيم اليازجي<sup>(١)</sup> ، والبارودي<sup>(٢)</sup> ، جرى فيه على أصول الفرنجة ، من تحليل للفكرة والعاطفة والجمل<sup>(٣)</sup>.

وقد أشارت الشركة المتحدة للتوزيع بدمشق إلى أنها تزمع طبع هذا الكتاب وكتاب على صخور صقلية ، وأفكاره ضمن أعماله الكاملة ، ولما تفعل .

٥ - كتاب عن أناتول فرانس :

رأيت أصوله عند شقيقه رؤوف ، وهو صغير الحجم ، يتضمن قراءة في بعض آثار " فرانس " ، وحديثا عن أسلوبه ، وقد نشر جزء منه في الصحف .

كما أن محاضراته التي ألقاها في جامعة الكويت ، ١٩٦٩-١٩٧٠ م ، سوف تطبع في كتاب مستقل بعنوان :

- محاضرات جامعة الكويت (٤).

(١) إبراهيم اليازجي (١٦٢٣-١٣٢٤هـ) عالم بالأدب واللغة ، ولد ونشأ في بيروت ، من آثاره نجعة الرائد

في المترادف والمتوارد ، وله مشاركة في الصحف ، كما أن له ديوان شعر ( الأعلام ١/٧٦ ) .

(٢) محمود سامي البارودي (١٢٥٥-١٣٢٢هـ) أول ناهض بالشعر العربي في العصر الحديث ، وقائد

شجاع ، شارك في عدة حروب ، ونفاه الإنجليز إلى سيلان ، طبع ديوانه وله مختارات شعرية

( الأعلام ٧/١٧١ ) .

(٣) انظر : أنا والنثر ١١٢ .

(٤) نشرت هذه المحاضرات مفرقة في مجلة المجمع بدءاً من مج ٤٤ ، ج ٤ ، ص ٦٨٧ .

وكذلك مقالاته ، التي كان يكتبها لجريدة الأيام الدمشقية ، حيث ذكر لي شقيقه رؤوف أنه سيطبعها في كتاب بعنوان :

- **يوميات الأيام** .

كانت تلك كتب المطبوعة والمخطوطة ، وله زيادة على ذلك ، كثرة كاثرة من المقالات اللغوية والأدبية ، والبحث اللغوي غالب على إنتاجه المنشور<sup>(١)</sup>.

فأما مقالاته اللغوية في مجلة المجمع ، فقد تجاوزت الأربعين مقالة ، وتُشكّل سلسلة ( بقايا الفصاح ) ثمان عشرة مقالة منها ، وأما مقالاته التي يعرف فيها ببعض الكتب التي صدرت آنذاك ، أو التي حققت ، ويتناول بعضها بالنقد والدراسة والتحليل ، فقد بلغت أكثر من خمسين مقالة في مجلة المجمع العلمي وحدها .

وشارك أيضا في ترجمة بعض الآثار الغربية ، فنقل إلى العربية فقرات من قصة [ اليد اليسرى ]<sup>(٢)</sup> ، كما نقل مقاطع من رواية<sup>(٣)</sup> [ مدام بوفاري ]<sup>(٤)</sup> ، ونقل أيضا وصفا لعاصفة في بحر الهند ، من الأدب الفرنسي<sup>(٥)</sup>.

وإضافة إلى ماتقدم ، كتب جبري مقدمات لبعض الكتب ، مثل :

رواية ( الأزهير الحمر ) لأميرة الحسن ، وترجمة ( رباعيات الخيام ) لنويل عبدالأحد ، وكتاب ( أناتول فرانس ) لوجيه بيضون ، وكتاب ( الأدب العربي المعاصر في سورية ) لسامي الكيالي .

وثمة كتب أخرى ودراسات ، أشار إلى أنه ألف بعضها ، وأنه يزمع تأليف بعضها الآخر ، ولكنها غير موجودة بين أيدينا ، إما لأنه همّ بتأليفها ولم يمهله الأجل ، أو لأنها ضاعت .

(١) انظر : شفيق جبري باحثا لغويا ٤٥ مقال في مجلة الموقف الأدبي بقلم عبدالفتاح المصري . وانظر

أيضا : حركة الإحياء اللغوي في بلاد الشام ١٢١ ، د . نشأة ظبيان ، دمشق ١٩٧٦م .

(٢) مؤلفها : غي نوموباسان .

(٣) للكاتب غوستاف فلوبيير .

(٤) انظر : تأثير الغرب في أدب شفيق جبري ٣٢ ، مجلة الموقف الأدبي .

(٥) انظر : بين البحر والصحراء ٣١ .

فمنها دراسة له عن أبي تمام <sup>(١)</sup> والبحتري <sup>(٢)</sup> ، وأرجح أن نواة هذه الدراسة هي مقالاته التي نُشرت عنهما في مجلة المجمع ، وهي قليلة .  
ومنها دراسة عن الشعر في كتاب الأغاني <sup>(٣)</sup> ، وكتاب ثالث أراد أن يجعل عنوانه ( أنا والناس ) <sup>(٤)</sup> .

أما القصة والرواية ، فلم يُعن جبري بالتأليف فيهما ؛ لأن هذين اللونين لم يستقيضا في عصره الذي نشأ فيه <sup>(٥)</sup> .

ومن آثاره النثرية : الرسائل الخاصة ، وليس بين يدي منها إلا عدد لا يكفي لبيان خصائصها ، على أنه قد وصفها ، بأنها لا يظهر عليها أثر من التكلف <sup>(٦)</sup> .  
أما خطبه ، فالمثبت منها قليل ، وفي مجلة المجمع <sup>(٧)</sup> و ( أنا والنثر ) <sup>(٨)</sup> نماذج ، يسير في أغلبها على الطبع ، ويضمّن بعضها تعبيرات وأساليب مأخوذة من التراث .

وبعد : فقد تأثر جبري بالمستشرقين في تأليفه ، فجاءت مشتملة على علم جم ، وتحليل جيد <sup>(٩)</sup> ، فأورث الفكر الأدبي المعاصر مع أبناء جيله الماضي ثروة تعز على النسيان <sup>(١٠)</sup> .

- 
- (١) أبو تمام حبيب بن أوس ( ١٨٨ - ٢٣١ هـ ) شاعر أديب ، من أمراء البيان ، صاحب مدرسة البديع وعلمها في الشعر العربي ، من آثاره الديوان ، والحماسة ، كُتِب عنه الكثير ( الأعلام ١٦٥/٢ ) .
  - (٢) انظر : مقالته سحر العبقرية ، مجلة المجمع ص ٢٢٣ ، مج ١٠ ، ج ٤ .
  - (٣) انظر : دراسة الأغاني ١٤ .
  - (٤) انظر : أنا والنثر ه .
  - (٥) انظر : اتجاهات النقد الحديث ٢١٤ .
  - (٦) انظر : أنا والنثر ١٨٦ .
  - (٧) انظر : مج ٢٦ ، ج ٢ ، ص ٤٤٩ .
  - (٨) انظر : ص ١٠٣ و ١٠٥ .
  - (٩) انظر : محاضرات في الاتجاهات الفكرية ٢٠٠ .
  - (١٠) انظر : مقال ( شفيق جبري وأراؤه النقدية ) بقلم محمد رجب البيومي ، المجلة العربية ، السنة ه ، العدد ٨ ، ص ٥٢ .

## ٢ - فنونه النثرية :

النثر الفني قرين الشعر في الأداء والتعبير ، إذ إنه لون من الكلام لا يتقيد بوزن ولا قافية ، يعبر عن خلجات النفس بلغة ترتفع عن الحديث العادي ، والعلم الجاف<sup>(١)</sup> .  
ومن أنواعه المقالة والقصة والرواية والمسرحية ، والرسالة ، وأدب الرحلات ، والسير والتراجم ، مما عُرفَ بعضه قديما ، وجدَّ أكثره حديثا .  
ومما أبدع فيه جبيري وأجاد ، فن المقالة ، والسير ، وأدب الرحلات ، وسوف أفصل الحديث في كل نوع ، مجملا أو مفصلا بحسب إنتاجه فيه .

### ١ - فن المقالة :

تُعَرَّف المقالة بأنها « لون من النثر الفني ، يقوم على فكرة محددة تعن للكاتب عن موضوع ما ، فيضمَّنُها عناصره بطريقة مرتبة ، ويستدل عليها حتى تؤدي إلى نتيجة معينة »<sup>(٢)</sup> ، وشرطها الأول « أن تكون تعبيراً صادقاً عن شخصية الكاتب »<sup>(٣)</sup> .

وفكرة المقالة وموضوعها ، تسبق كل شيء ، فالغاية منها الاقتناع الفكري لا الانفعال الوجداني<sup>(٤)</sup> .

ولقد كانت المقالة في هذا العصر ، وما زالت ، هي اللون الغالب في الإنتاج الأدبي<sup>(٥)</sup> وشهدت تطورا ملحوظا في المبنى والمعنى - وبخاصة في سورية بلد الكاتب - فأما « تطور المبنى فيدل على أن المقالة قد انتقلت من طور العناية بالسجع والتزييق اللفظي ، إلى طور العناية بالكلام المرسل ، وتطور المعنى يدل على أن المقالة قد انتقلت من طور العناية بالتصوير إلى طور العناية بالتثقيف »<sup>(٦)</sup> .

(١) العمل الأدبي بين الإبداع والأداء ٢٥٥ .

(٢) المرجع السابق ٣٠٨ .

(٣) فن المقالة ٩٥ ، د . محمد يوسف نجم ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٦٦ م .

(٤) انظر : النقد الأدبي أصوله ومناهجه ٩٦ ، سيد قطب ، دار الفكر العربي ، غير مؤرخ .

(٥) انظر : المقالة الأدبية ووظيفتها في العصر الحديث ٦٥ ، د . عطاء كفاي ، هجر للنشر والتوزيع ، ط الأولى ١٤٠٥ هـ .

(٦) اتجاهات النقد الحديث في سورية ٢٢٢ بتصرف .

وكان دخول المقالة في المجلة ، بداية لرقيتها ، فتنوعت ضروبها ، فظهرت المقالة العلمية ، وارتقت الاجتماعية والسياسية ، حين تضمّنت البحث العلمي الجاد ، والتحقيقات الموضوعية<sup>(١)</sup>.

هذا ما كان من أمر المقالة في سورية بعامة ، أما المقالة عند جبيري ، فلها مراحل خاصة وسمات ، وبدءاً فإنه لم يكن يكتب لمجرد الكتابة ، بل لابد من عوامل تأثيره ، ومنها النزعات الأدبية ، والشعور القومي ، والجمال ، والطبيعة بخاصة أثر واضح في أدبه<sup>(٢)</sup>.

ويمكن إجمال المراحل التي مرت بها المقالة عنده ، على هذا النحو :

#### أولاً : مرحلة التجربة :

وهي بداية كتابته هذا اللون من النثر ، ويمثلها مقالان ، الأول عنوانه : [ قياس فرضي لمعرفة علل تحوّل الأنواع ] نشره في ٨ / نيسان ١٩١٤ م<sup>(٣)</sup> ، وقال عنه : « لم أنشئ هذا المقال إنشاءً ، وإنما ترجمت »<sup>(٤)</sup> ، والآخر عنوانه [ معرفة الأفعال النفسية بالملاحظة ] نشره بعد الأول بأشهر<sup>(٥)</sup>.

وفي مرحلة التجربة هذه خاض في موضوعات عميقة ، لم يكن مستعداً لها ، وخلط فيها بين أسلوب العلم ، وأسلوب الأدب ، واستمد أفكارها من الترجمة والنقل<sup>(٦)</sup>.

#### ثانياً : مرحلة التوسع في الاستفادة من العلم وما نُقل عن الغرب :

قال شارحاً هذه المرحلة : « فالطور الجديد الذي دخلت فيه مقالتي ، إنما هو توسيع أفق المقال بالاستفادة من العلم . . . وإذا شئت أن أُلخص خصائص هذا الطور ، فإنني أجد هذه الخصائص في ميلي إلى تأييد الفكر بشواهد من آفاق العلم ،

(١) انظر : النثر الأدبي الحديث في سورية ٢٣٤ .

(٢) انظر : رجال في أمة ٩١/١ .

(٣) انظر : أنا والنثر ٢٨ .

(٤) المصدر السابق ٢٩ .

(٥) انظر : المصدر السابق ٣١ .

(٦) انظر : أنا والنثر ٣٠ .

وباستطرادات كثيرة ، وبضرب أمثال مختلفة ، حتى تكون الفكرة واضحة قوية <sup>(١)</sup> .  
وفيها تأثر بأراء عدد من الكتاب الغربيين ، وصار ينقل بعض أقوالهم ، وينسج  
على منوالهم ، وقال إن اتصاله بهم أدخل على أسلوبه شيئاً من اللين والرقّة <sup>(٢)</sup> .  
وفي المرحلتين الأولىين ، كان يصرف همه إلى اللغة والألفاظ ، لأنها مقدمة عنده  
على الفكر <sup>(٣)</sup> ، ومن حيث الأسلوب ، يذهب بعض الدارسين ، إلى أنها صورة من  
مقالات الرافعي وأحمد أمين <sup>(٤)</sup> والزيات <sup>(٥)</sup> .

ولقد لخص جبري هاتين المرحلتين في قوله : « بدأت بالمقالات ، ولاهم لي فيها  
إلا اللفظ ٠٠٠ ثم تحولت إلى مقالات أوسع أفقا ، جمعت فيها بين الأدب والعلم ٠٠٠  
ثم صرت إلى عالم آخر ٠٠٠ فاتصلت بكتاب من أكبر كتاب فرنسة ، فأخذت  
عنهم » <sup>(٦)</sup> .

### ثالثاً : مرحلة المقالات الأدبية :

وفي هذه المرحلة ظهرت شخصيته الأدبية ، وتميز أسلوبه ، وبدأ يكتب مقالات  
يستمد فيها من التراث العربي ، ويستفيد منه استفادة الواعي ، مازجا ذلك بما ثقفه  
من قراءته الواسعة في الأدب الأوروبي ، والفرنسي خاصة .  
ومن مقالاته في هذه المرحلة [ بلاغة المواطن <sup>(٧)</sup> ] ، و [ الشعر وحي يوحى ] <sup>(٨)</sup> ،  
و [ لاقديم ولاحديث ] <sup>(٩)</sup> .

- 
- (١) المصدر السابق ٤٦ و ٤٩ .
  - (٢) انظر : المصدر السابق ٥٧ .
  - (٣) انظر : أنا والنثر ٤٣ .
  - (٤) أحمد أمين ( ١٢٩٥-١٣٧٣ هـ ) عالم بالأدب والتاريخ ، كان من أعضاء المجامع اللغوية ، ويعد من  
المكثرين في التأليف ، ومن أثاره فجر الإسلام ، وفيض الخاطر والنقد الأدبي وحياتي . ( الأعلام  
١٠١/١ ) .
  - (٥) انظر : صناع الأدب ١٤٤ ، وأحمد حسن الزيات ( ١٣٠٢-١٣٨٨ هـ ) صاحب الرسالة ، أديب من  
كبار الكتاب ، نو أسلوب ناصع جميل ، من كتبه وحي الرسالة ودفاع عن البلاغة ، وتاريخ الأدب  
العربي ، وله مترجمات عن الفرنسية . ( الأعلام ١١٤/١ ) .
  - (٦) أنا والنثر ٥٨ .
  - (٧) انظر : المصدر السابق ٦٨ .
  - (٨) انظر : أنا والنثر ٧١ .
  - (٩) انظر : المصدر السابق ٧٤ .

#### رابعاً : مرحلة المقالات السياسية :

بدأها إبان الانتداب الفرنسي ؛ لما رأى أن المقالات التي تتناول الوضع السياسي ، وتصف النقمة عليه ، تصادف هوى في القلوب<sup>(١)</sup> .  
ومعلوم أن أسلوب المقال السياسي ، ينبغي أن يكون سهلاً بعيداً عن الزخرفة ، معتمداً على إثارة العواطف<sup>(٢)</sup> . من أجل ذلك كان جبري يحصر همه في هذه المقالات في التشنيع ، « حتى تستحکم كراهية الانتداب ، وكراهية رجاله في البلاد ، وحتى تؤدي هذه الكراهية إلى تقوية روح الحرية والاستقلال »<sup>(٣)</sup> .  
وكان يمزج السياسة بالأدب ، فكانت مقالاته لاتخلو من إشارات سياسية ، كمقال [ حديث في دار الدكتور طه حسين ]<sup>(٤)</sup> ، وربما جاءت السياسة عرضاً ، كقوله حين تحدث عن العلاقة بين اللفظ الأصل وما يتفرع عنه « يقول الفيروزبادي<sup>(٥)</sup> : الأكل الملك ، والمأكول الرعية ، فأني صلة أقوى من هذه الصلة . . . لاسيما في عصر نرى فيه بأعيننا بعض الملوك كيف يأكلون الرعية أكلاً »<sup>(٦)</sup> .  
وتغلب على مقالاته السياسية ، الصفات الخطابية ، والأسلوب السهل الواضح ، مشبهاً بذلك أغلب كتاب المقالة السياسية في عصره<sup>(٧)</sup> ، ومن مقالاته التي تميزت بالعنف والشدة ، مقال [ رئيس جدد ، ونواب جدد ] ، و [ حكاية جنرال ]<sup>(٨)</sup> .

(١) انظر : المصدر السابق ٩٧ .

(٢) انظر : المقال وتطوره في الأدب المعاصر ٧٨ ، د . السيد مرسي أبو ذكري ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ م .

(٣) أنا والنثر ٩٧ .

(٤) انظر : المصدر السابق ٩٨ ، وطه حسين (١٩٣٠٧-١٣٩٣ هـ) من كبار الأدباء ، جدد مناهج وأحدث ضجة في عالم الأدب العربي ، من آثاره ذكرى أبي العلاء وعلى هامش السيرة ، والأيام . ( الأعلام ٢٣١/٣ ) .

(٥) الفيروزبادي (٧٢٩-٨١٧ هـ) من أئمة اللغة والأدب ، كان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير ، من أشهر كتبه القاموس المحيط ، وله مصنفات كثيرة . ( الأعلام ١٤٦/٧ ) .

(٦) أنا والنثر ١٥٩ .

(٧) انظر : الأدب العربي المعاصر في مصر ٢٠٥ .

(٨) من مجموع مقالات في حوزة شقيقه رؤوف .

### خاصاً : مرحلة المقالات اللغوية والنقدية :

كان جبيري شغوفاً باللغة ، محباً للبحث في أسرارها ودقائقها ، مما حدا ببعض الدارسين أن يصفه بأنه درع من دروع اللغة العربية<sup>(١)</sup> ، أما أهم مقالاته اللغوية فهي سلسلة بقايا الفصاح ، وكان يجري فيها على البدء بالفكرة وتقريرها ، أو طرحها على شكل سؤال ، وقد يبيّن الغاية التي من أجلها عقد المقالة ، ثم يشرح الفكرة أو يجيب عن السؤال بأسلوب منطقي متدرج<sup>(٢)</sup> .

وقد ينوع القول والموضوعات المعالجة ، وتتراوح مقالاته بين الطول والقصر ، ويقع أحيانا في تكرار الفكرة ، ومن سمات بعض مقالاته أنها تصطبغ بصبغة الخاطرة<sup>(٣)</sup> .

أما مقالاته النقدية ، فيدخل تحتها تعريفاته بالكتب ، التي كان ينشرها في مجلة المجمع ، وقد جرى عند تعريفه بالكتاب على عرضه أولاً ، ثم الإعراب عن رأيه الخاص ، إلى جانب إعراب المؤلف عن آرائه ، وكان يظهر محاسن الكتاب أكثر من مساوئه ؛ لأنه يرى فائدة النقد في ذكر المحاسن<sup>(٤)</sup> .

ولكن هذا الاهتمام بالمحاسن ، جرّه إلى المجاملة التي تفقد المقالة قيمتها ، ولعل الدليل على هذا تكرار جمل بعينها مثل أن يقول: « إنك لاتفرغ من قراءة كتاب (كذا) إلا امتثلته نصب عينيك »<sup>(٥)</sup> .

وفي عرضه للكتب ، يعمد إلى التنبيه إلى ما فيها من الأغلط اللغوية ، والعجمة ، كقوله مثلاً : « فقد أخذت بمخنق أسلوبه رائحة غريبة ، فأسلوبه فيه شيء من رائحة اللغة الفرنسية ، وفيه شيء آخر من العربية غير المصقولة »<sup>(٦)</sup> .

(١) انظر : مقال ( شفيق جبيري في نمة الله ) بقلم الدكتور عبد الكريم خليفة ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، ص ٢٠٤ . العدد المزدوج ٧ - ٨ ، السنة الثالثة ، صفر ورمضان ١٤٠٠ هـ .

(٢) انظر : مقال " شفيق جبيري باحثاً لغوياً " لعبدالفتاح المصري ، ص ٤٢ وما بعدها من مجلة الموقف الأدبي ، العدد ١١٣ ، أيلول ١٩٨٠م .

(٣) انظر : المرجع السابق ٤٢ وما بعدها ، وانظر كذلك : حركة الإحياء اللغوي في بلاد الشام ١٢١ .

(٤) انظر : أنا والنثر ١٤٣ .

(٥) انظر مثلاً : تقرظه لكتاب " الفرزدق " لخليل مردم ، مجلة المجمع مج ١٦ ، عدد ٩ و ١٠ ، ص ٢٩ ، ١٣٦٠ هـ .

(٦) من عرضه لكتاب " في أوقات الفراغ " لمحمد حسين هيكل ، مجلة المجمع مج ١٠ ، ج ٨ ، ص ٥١٠ .

- هيكل المقالة :

لا يمكن الحكم بوجود هيكل واحد للمقالة عند جبيري ، ولكن الغالب في مقالاته أن تتضمن مقدمة وعرضا وخاتمة ، ولكل مقالة عنوان .

١ - عنوان المقالة :

والخلاف في تأثيره في القارئ ؛ لكونه - إن كان جيدا - يثير اهتمامه ، ويلفت انتباهه ، ويدل على روح الكاتب ووجهته<sup>(١)</sup> .

وقد سار في اختيار عناواناته عدة سير ، فحينما يجعل العنوان تقريرا لخلاصة المقال ، مثل : لم ينصفوا صاحب الأغاني ، شاعرية أبي فراس ، كثرة المصادر والأسماء ، خبث المتكلمين .

وحيثما يجعله طريفا مشوقا ، مثل : إبليس يغني ، أديب في السوق ، فن الشيخوخة .

وقد يأتي به مباشرا واضحا ، مثل : بدء الأدب الحديث ، الفكر العربي بين ماضيه وحاضره ، ألعاب الصبيان عند العرب .

أو يجعله مثيرا للعواطف ، مثل : أيها العرب اتحدوا .

وفي الغالب ، كانت عناواناته في بداية أمره ذات طابع علمي جاف ، مثل : تنازع الطبقات ، الظواهر والبواطن ، دولة العمال ، صفحة من تاريخ العرب ، ولكنه بعد ذلك مال إلى جعل العنوان ذا جاذبية ، فصار يختار اللفظ الموحى ، والتعبيرات الشاعرية ، مثل : وطننا الروحاني ، المرأة هذا اللغز الأدبي ، مرونة دمشق ، روح الشاعر ، فن التفكير ، وطننا العقلي .

أما مقالاته الصحفية ، فإن عناواناتها اتصفت بالطول ، وكثرة المتعاطفات ، مثل : مقال [ لحمنا ودمنا وروحنا ، التدجيل والدجالون ]<sup>(٢)</sup> ، ومقال [ وفاء السود ، غدر البيض ، أخلاق الغابات ]<sup>(٣)</sup> ، وقد يجعل فيه شيئا من ألقاظ العوام ، مثل : مقال [ أكل وشرب ونوم ، وطق حنك ، هذه هي الحياة التي فتحنا أعيننا عليها من خمسين سنة ]<sup>(٤)</sup> ، وكما هو ملحوظ ، اجتمع في هذا العنوان متعاطفات كثيرة ، ولفظ عامي ،

(١) انظر : المقالة الأدبية ٥٩ ، د . عطاء كفاي .

(٢) نشرت هذه المقالات في أعداد مختلفة من جريدة الأيام السورية عام ١٩٦٢ م .

وطول ، علما أنه لم يكن دقيقا في الدلالة على المضمون .

#### ب - مقدمة المقالة :

أما مقدمة المقالة ، فإن أغلب الكتاب يصدرّون مقالاتهم بحادثة صغيرة ، أو قصة قصيرة ، أو خاطرة مناسبة<sup>(١)</sup> ، حتى تكون جاذبة للقارئ ، حاملة له على متابعة المقالة إلى نهايتها<sup>(٢)</sup> .

وقد جرى صاحبنا على وضع مقدمة لمقالاته ، تختلف من مقال لآخر ، فحينما يجعلها تلخيصا لمضمون المقال ، مثل قوله في مقال عنوانه [ روح الشاعر ] : « إن لكل شاعر روحاً خاصة ، تغلب عليه في جملة شعره »<sup>(٣)</sup> .

وقد تكون المقدمة استفهاما ، كما في قوله في مقال [ فن الشيخوخة ] : « هل من سبيل إلى التفلت من الشيخوخة ؟ أو هل من سبيل إلى أن نشيخ شيخوخة حسنة »<sup>(٤)</sup> ، وهو بهذه التساؤلات الطريفة يثير انتباه القارئ ، ويدعوه لقراءة المقال .

وربما ضمّن المقدمة نصا منقولاً عن غيره ، كما في مقال [ أحمد شوقي شاعر لم يظهر مثله من ألف سنة ] حيث أورد كلمة ابن المقفع ، لما انقطع عن الكتابة ، وهي قوله « تزدهم المعاني في صدري ، فيقف القلم لتحيره » ، ثم عقب عليها : « إننا في هذا المقام كابن المقفع ازدحمت عندنا المعاني لما مات شوقي »<sup>(٥)</sup> .

وربما نقل نصا ، ثم أعقبه باستفهام ، كما في مقدمة مقال [ فن العمل ] ، التي جاءت على هذا النحو : « من أقوال شيللي<sup>(٦)</sup> : ( فرح النفس في العمل ) ، ولكن ماهذا العمل الذي يدخل الفرحة على النفوس »<sup>(٧)</sup> ، ويمكن أن نقول إن النصوص التي ينقلها ، هي الأصل الذي تنقذ منه الفكرة في ذهنه ، وعليها يبني آراءه ، ويبثها .

(١) انظر : المقالة الأدبية ٥٦ ، عطاء كفاي .

(٢) انظر : المرجع السابق ٥٥ .

(٣) راجع ص ٩٩ من المجلة العربية ، السنة الرابعة ، العدد الخامس .

(٤) راجع ص ٧ من مجلة الثقافة المصرية ، العدد ٢٨ ، السنة الأولى ٥ شعبان ١٣٥٨ هـ .

(٥) راجع ص ٣٥٨ من نكزى الشاعرين ، أحمد عبيد ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ .

(٦) شيللي ( ١٧٩٢ - ١٨٢٢ م ) شاعر انجليزي ، من أهم شعراء المدرسة الرومانسية ، أحدث ضجة بنشر آرائه اللادينية ، وكان من أبلغ من دافع عن الحرية ، وله آراء في الشعر مشهورة . ( الموسوعة العربية الميسرة ١٠٩٢ ) .

(٧) راجع ص ٩ من مجلة الثقافة المصرية ، العدد ٤٧ ، السنة الأولى ، ١٠ شوال ١٣٥٨ هـ .

وقد تكون المقدمة حادثة رأها الكاتب ، فتأثر بها ، وأحدثت في نفسه أثرا تولدت منه فكرة ، أو لعل الفكرة كانت ناضجة عنده ، ولكن تلك الحادثة فتحت له مجال القول ، فمن هذا النمط مقدمة مقال [ بين الماضي والحاضر ] ، حيث ذكر فيها أنه رأى دورا تبني وبورا تهدم ، فتخيل أن التي تُهدمُ تحسدُ التي تُبنى ، ثم خرج إلى ما أراد قوله<sup>(١)</sup>.

### ج - عرض المقالة :

ولا بد فيه من وحدة الموضوع<sup>(٢)</sup> ، وقد كان جبيري ملتزما بشرطه هذا ، فأغلب مقالاته ذات وحدة موضوعية ، إلا ماندر من استطرادات تخرج به عن الفكرة الرئيسة ، كما في مقال : [ رأي في الشعر الحر ] ، فقد خرج فيه إلى ذكر مدائح المتنبي لسيف النولة ، مما لاصلة له بموضوع المقال<sup>(٣)</sup>.

أما مقالاته الصحفية ، فإن أغلبها غير جارٍ على وحدة الموضوع ، بل كان يجمع فيها عدة فِكرٍ ، وهو في هذا يقلد معاصريه ، الذين يرون أن روح الصحافة اليومية تقتضي الإيجاز والسرعة ، والتنقل بالقارئ من موضوع إلى آخر ، مثال ذلك مقال : [ أكل وشرب ونوم ، وطق حنك ٠٠٠٠٠ ] ، فقد جعله في فكرتين ، الأولى جعل عنوانها : كتابة اليوميات ، والأخرى عنوانها : أيام الكندوش<sup>(٤)</sup>.

ويجب التنبيه إلى كون جبيري موقنا باختلاف أسلوب مقال الصحف اليومية عن أسلوب مقال المجلة الأسبوعية ، وعلى هذا المبدأ كان يكتب مقالاته ، ولذلك يجد القارئ أن مقالاته في جريدة الأيام - مثلا - لم تكن تجري على نهج واضح محدد ، بل كان يطلق لقلمه العنان ، فتنتال الخواطر التي لايجمعها جامع أحيانا ، أو تكون بينها صلة ضعيفة .

(١) راجع ص ٢٤٤ من مجلة الكتاب ، السنة الثالثة ، المجلد الخامس ، الجزء الثاني ، ربيع الأول ١٣٦٧ هـ .

(٢) انظر : المقال وتطوره في الأدب المعاصر ٧١ .

(٣) راجع ص ٢٤ ، المجلة العربية ، السنة الثانية ، العدد الرابع .

(٤) من مجموع مقالات نشرت في جريدة الأيام عام ١٩٦٢ م ، في حوزة شقيقه رؤوف ، والكندوش : شبه المخزن ، من الخشب ، يُوضع فيه القمح ( نقلا عن المقال نفسه ) .

## د - خاتمة المقالة :

أما خواتم مقالاته ، فليست على حال واحدة ، فتارة يجعلها في جملة قصيرة ، كقوله في خاتمة عرضه لرواية [ سيد قريش ] : « والتأليف بين حقيقة التاريخ وبين خيال الرواية، هذا هو السحر الحلال الذي يروعك في سيد قريش »<sup>(١)</sup>، وهو هنا، يهدف إلى تجميع عناصر المقالة، مركزة ومثبتة في نبرة حية، تبرز روح المقالة كلها<sup>(٢)</sup>.

ومثل ذلك قوله في خاتمة مقال [ سلطان العوامل النفسية ] : « فللعوامل النفسية في حياة الأمم شأن عظيم ، ربما كان أعظم من شأن العوامل المادية »<sup>(٣)</sup>. وتبدو أهمية الخاتمة ، عندما يطول الكلام في الموضوع ، فتكون تلخيصا له ، وذلك بتحري الدقة والإيجاز ، وذكر أهم الفِكر التي تناولتها<sup>(٤)</sup>. فمن ذلك خاتمة مقال [ لذة العقل والروح ] ، حيث قال فيها : « فهل لنا في حِكم أولئك الحكماء ، وفي حياة أصحابها ، عبرة لنا في زمن ، كاد الناس فيه ينكرون كل لذة عقلية أو روحية ، ولا يعتنون إلا بلذات المادة وحدها ، تلك اللذات التي أتعبت العالم في الحاضر ، وستُهلكه في الآتي إذا هي استمرت »<sup>(٥)</sup>.

وقد يُشعرُك بأنّه انتهى من عرض فكرته ، حين يقول : فإن كان لحديثنا خلاصة، فهذه خلاصته ، أو تحصيل المقال كذا وكذا<sup>(٦)</sup>، وهذا أسلوب جرى عليه كثيرا في مقالاته وكتبه<sup>(٧)</sup>.

وربما جعل الخاتمة استنفها ما تقريريا ، ليشاركه القارئ في إصدار الحكم ، مثل قوله في مقال [ وفاء السود - غدر البيض - أخلاق الغابات ] : « أفليس من المؤلم أن يكون الحيوان الضاري في القرن العشرين أحسن أخلاقا من الإنسان ؟ ! »<sup>(٨)</sup> ،

(١) راجع ص ١٢٧ من مجلة المجمع العلمي مج ١٠ ، ج ٢ .

(٢) انظر : المقالة الأدبية ٥٦ .

(٣) راجع ص ٩ من مجلة الثقافة المصرية ، السنة الأولى ، العدد ٥١ ، ٨٠ ، نو القعدة ١٣٥٨ هـ .

(٤) انظر : المقال وتطوره في الأدب المعاصر ٧١ .

(٥) راجع ص ٨٥٤ من مجلة الكتاب السنة ٢ ، المجلد ٣ ، الجزء ٦ ، جمادى الأولى ١٣٦٦ هـ .

(٦) انظر مثلا : مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ١ ، ص ٩٧ ومج ١ ، ج ٩ ، ص ٢٦٩ .

(٧) انظر مثلا : محاضرات عن محمد كرد علي ص ١١١ و ٨٩ و ٨٢ .

(٨) من مجموع مقالات نشرت في جريدة الأيام ١٩٦٢ م .

وقوله في مقال [ لحمنا ودمنا وروحنا . . . ] « أفرأينا فائدة مطالعة المعاجم . . . »<sup>(١)</sup> ،  
وربما طالت الخاتمة ، تبعا لطول المقال نفسه ، كما في مقال [ فن  
الشيخوخة ]<sup>(٢)</sup> ، ومقال [ أحمد شوقي شاعر لم يظهر مثله من ألف سنة ]<sup>(٣)</sup> .

### أنواع المقالة عند جبري :

#### ١ - المقالة الأدبية :

وهي أكثر أنواع المقالة وروداً عنده ، حيث يصوغُ فيها أفكاره بأسلوبٍ أدبيّ  
رشيق ، وقد مرت أمثلة عليها ، ومنها كذلك مقالته [ الأدب ، أفعه - غايته - فعله ] ،  
ومما ورد فيها قوله : « وما ينبغي للأدب أن يكون إلا ألهية ، يتلاهى بها العقل ، لكنها  
ألهية شريفة ، لاتشبه غيرها من الآلهي ، ما ينبغي للأدب أن يكون إلا لذة الفكر  
وراحة البال »<sup>(٤)</sup> .

#### ٢ - أما المقالة العلمية :

فهي نادرة لديه ، ومثالها مقال [ سلطان العوامل النفسية ] ، ومما قال فيه : «  
غير أنا إلى جنب الفحم والبتروال والكهرباء ، وغيرها من القوى المادية التي كان لها  
شأن عظيم في تاريخ الشعوب ، نجد قوى غير مادية ، كان لها في بعض العصور  
شأن أعظم »<sup>(٥)</sup> ، فهو هنا يتحدث بلغة أقرب إلى لغة العلم ، وربما امتزج الأسلوب  
العلمي بالأدبي ، كما في مقال [ لحمنا ودمنا وروحنا ، التدجيل والدجالون ] ، حيث  
ورد فيه حديث مفصل عن مادة " دجل " ومشتقاتها ، ومعانيها ، بأسلوب علمي  
خالص ، تأتي في تضاعيفه وبين سطورهِ جمل ذات أسلوب أدبي ممتع<sup>(٦)</sup> .

ذالك نوعا المقال عنده ، من حيث الأسلوب ، أما من حيث موقفه من الموضوع  
الذي يكتبه ، فإننا نجد عنده :

- (١) من مجموع مقالات نشرت في جريدة الأيام ١٩٦٢ م .
- (٢) راجع ص ٧ من مجلة الثقافة المصرية ، السنة الأولى ، العدد ٢٨ .
- (٣) انظر : ذكرى الشعراء ٢٥٨ .
- (٤) راجع ص ٩٢ من مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ١ ، شعبان ١٣٤٨ هـ .
- (٥) راجع ص ٩ من مجلة الثقافة المصرية ، العدد ٥١ .
- (٦) من مجموع مقالات نشرت في جريدة الأيام ١٩٦٢ م .

## ١ - مقالات ذاتية :

ذات نزعة انطباعية ، مثل مقال [ دار الهدوء ] الذي يقول فيه : « سلام على جنيف ، سلام على هدوء شوارعها وبورها ، سلام على هذه الدور التي تظللها شجرات جرّدها الخريف من ورقها الأخضر ، فتتأثر ورقها الأصفر من جميع جوانبها »<sup>(١)</sup> ، ويبيّن في مافي هذه الجمل المتوالية ، ذات الجرس المتشابه ، من انفعالات صادقة تجاه مشاهد أنس بها الكاتب وتفاعل معها .

ومن مقالاته الذاتية ، ذات النزعة الاجتماعية ، مقال [ خطبهم وخطبائهم ] ، حيث ذكر فيه أن خطبنا - معشر العرب طويلة مكررة ، وأنا « نستعين على قحط أفكارنا بخصب مترادفاتنا ، قارنا إياها بخطب بعض الاعاجم »<sup>(٢)</sup> .

## ب - مقالات موضوعية :

وهي كثيرة ، كأغلب مقالاته النقدية والسياسية ، وقد مرّ حديث عنها ، فيه إشارة إلى مزجه الأدب بالسياسة ، كما في مقال [ حكاية أمريكانية ] ، الذي سرد فيه قصة طريفة ، بأسلوب ممتع ، خلص منها إلى نقد الحكومة الفرنسية<sup>(٣)</sup> .

## ج - مقالات ذاتية موضوعية :

غير أن الغالب على مقالاته ، امتزاج الذاتية بالموضوعية ، مثل مقالاته التي يُعرّف فيها بالكتب ، حيث صرّح باهتمامه بذاته فيها ، بقوله : « إني أعنى في هذا التعريف بنفسي أكثر من عنايتي بالمؤلف »<sup>(٤)</sup> ، وقوله : « فكان تعريفني ذاتيا وموضوعيا في وقت واحد »<sup>(٥)</sup> .

ومما امتزجت فيه الذات بالموضوع ، مقال [ وطننا الروحاني ] ، حيث أشار فيه إلى تقارب بلاد العرب ، في طبيعتها وطبيعة أهلها ، وأظهر شوقه ولهفته إلى اجتماع العرب بعد شتاتهم<sup>(٦)</sup> . ومثله مقال [ انحدار الأنواق ] الذي تحدث فيه عن تدني الذوق الأدبي ، والاهتمام بأشكال من الأدب رديئة ، وألح إلى اهتمام الأمم المتحضرة

(١) أنا والنثر ٩٠ .

(٢) من مجموع مقالات نشرت في جريدة الأيام ١٩٦٢ م .

(٣) انظر : أنا والنثر ١٠٠ .

(٤) المصدر السابق ١٤٩ .

(٥) المصدر السابق ١٤٢ .

(٦) راجع ص ٥٤٦ من مجلة المنهل ، مج ٢٢ ، عدد شعبان ١٣٨١ هـ .

بالبيان ، ثم التفت التفاتة ذاتية ، فقال : إن عدم الاهتمام بالتجويد البياني ، عند طائفة من شباب هذا العصر « جرّ ٠٠٠ إلى عواقب وخيمة نشهدها في أدبنا في هذه الأيام »<sup>(١)</sup>.

#### - مميزات أسلوب مقالاته :

أما أسلوب جبري في مقالاته ، فإن الوضوح غالب عليه ، في التعبير وفي بسط الفكر ، وفيه جمال البساطة وعدم التكلف ، كما أن جيشان عواطفه يضفي عليها حسناً إلى حسُن ، وتلك هي صفات المقالة الجيدة<sup>(٢)</sup>.

ولو أنك رجعت الطرف في أنماط مقالاته ، لوجدته يؤثر الأسلوب السهل المرسل ، فلا يتكلف ولا يتصنع ، وقرأ قوله : « إذا رجعنا إلى بعض أدبنا في القديم ، فإننا لانتفع في هذا الأدب بحسن البيان وحده ، وإنما ننتفع بما وراءه من أخلاق لاغنى لنا عنها »<sup>(٣)</sup> ، تجد أنك تقرأ نثراً لا أثر فيه للصنعة ، يسترسل فيه كاتبه ، فلا يحس القارئ بنبو كلمة ، ولا ثقل لفظ .

وقد يعمد إلى الجمل القصار ، كقوله : « فلو اجتزأنا بأراء المتقدمين ، لجمدت القرائح ، ولنضبت الخواطر ، فإن لكل ناقد أسلوباً ، وإن لكل مؤرخ مذهباً ٠٠ »<sup>(٤)</sup> . وقد يتسلل إلى نثره شيء من اللغة الشعرية ، كقوله : « أخذت بمخنق أسلوبيه رائحة غريبة »<sup>(٥)</sup>.

وربما عمد - عند إيراد النصوص - إلى التعليق عليها تعليقا يشرك القارئ في إصدار الحكم ، كقوله : « فأني بخل أطرف من هذا النوع من البخل ؟ ٠٠٠ فأني حجة أطرف من حجة هذه الجماعة ؟ ! »<sup>(٦)</sup>.

وأسلوبه في مقالاته النقدية ، يتراوح بين اللين والشدة ، وإن كان الأول هو الغالب ، ومن المقالات التي علت فيها نبرته ، مقال [ انحدار الأنواق ] ، حيث هاجم

(١) راجع ص ٩٥٧ من مجلة الأزهر ، رمضان ١٣٧٩ هـ .

(٢) انظر : المقالة الأدبية ووظيفتها في العصر الحديث ٥١ .

(٣) من مقالة " البيان الصادق " ص ١٦ ، المجلة العربية ، السنة الثالثة ، العدد الأول .

(٤) من مقالة " نقد المؤرخات الأدبية " ص ١٦٤ ، مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ٢ .

(٥) من مقالة " عرض كتاب في أوقات الفراغ " ص ٥١٠ ، مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ٨ .

(٦) من مقالة " البخلاء في كتاب الجاحظ ص ٣ ، المجلة العربية ، السنة الثالثة ، العدد السادس .

فيه أدباء عصره ، واهتمهم بعدم الرغبة في التجويد الفني ، ونعى على الصحف اهتمامها بسفاسف الأمور ، أكثر من اهتمامها بمقالات البلاغ ، وتحسر على ذهاب بعض أئمة البيان<sup>(١)</sup>.

أما شخصيته فإنها ظاهرة في مقالاته كل الظهور ، لكونه يعمد كثيرا إلى إبداء رأيه ، ومناقشة آراء غيره ، غير أنك تجد شخصيته - في بعض المقالات - تتوارى خلف النقول الكثيرة ، مما يجعل مقاله حشو معارف ، مثل مقال [ خبث المتكلمين ] ، الذي أكثر فيه من الاقتباس من نماذج المتكلمين وأساليبهم ، من أدباء الشرق والغرب<sup>(٢)</sup>.

أخيرا ، يمكن وضع نموذج لمقالاته ، حتى تتبين صورتها جيدا ، وهو مقال [ بين البحر والصحراء ] ، إذ نجده ينقسم إلى :

١ - مقدمة : ذكر فيها أنه قرأ كتابا عن البحر المتوسط ، فأعجب به ، ثم خرج إلى التفكير في الصحراء .

٢ - موضوع المقال : عرض لذكر الشباب ، ثورتهم على الأدب القديم القادم من الصحراء ، وميلهم إلى الأدب الحديث القادم من البحر ، ثم دافع عن الصحراء ، وبيّن مآثرها ، وخلص إلى أن البحر والصحراء امتزجا ، وكادت الصحراء تغلب البحر ، وأشار إلى ضرورة الأخذ بأيدي أولئك الثائرين على القديم .

٣ - خاتمة : قال فيها : « فإذا لم نكن حكماء في التخفيف من ثورة الشباب على الصحراء ، فإننا نخاف أن تنقطع الصلة بين ماضيها وحاضرنا ، وحينئذ الموت الأحمر »<sup>(٣)</sup>.

وهكذا ، يجد الدارس أن مقالات جبري ، غلب عليها الطابع الأدبي ، الذي يجمع بين الذاتية والموضوعية ، وأنه جرى فيها على نمطين : نمط منسق ذي مقدمة وعرض وخاتمة ، ويمثله مقالاته في المجلات ، ونمط يطلق فيه لأنكاره العنان دون تقيد بهيكل محدد ، ويمثله مقالاته الصحفية ، وأن أسلوبه في كل أسلوب سهل لا تكلف فيه ولا تعقيد .

(١) راجع ص ٩٥٧ من مجلة الأزهر ، عدد رمضان ١٣٧٩ هـ .

(٢) انظر : ص ٨ من مجلة الثقافة المصرية ، السنة الأولى ، العدد ٢٩ ، ١ جمادى الآخرة ١٣٥٨ هـ .

(٣) راجع المقالة في مجلة الكتاب ص ١٠٤ ، السنة الثانية ، المجلد الثالث ، الجزء الأول ، نوالحجة ١٣٦٥ هـ .

## ب - فن السيرة :

فن السيرة نوع من النثر ، يتناول التعريف بحياة رجل أو أكثر ، تعريفًا يطول أو يقصر ، ويتعمق أو يبدو على السطح ، وكلما كانت الترجمة أكثر أناقة وعناية بالثوب البلاغي ، كانت أقرب إلى الأدب منها إلى التاريخ<sup>(١)</sup>.

ومن الباحثين من يعد السيرة قصة تاريخية ، « لاتخلو من خيال يستحضر الماضي ، ويخلع على الشخصية صفة الحياة »<sup>(٢)</sup>.

ومن تصدّى لكتابة السيرة ، لزمه أن يلمّ بجوانب الشخصية التي يتناولها ، وأن يعرف المؤثرات في تكوينها ، و « أن يقرب ويبعد ، ويستبقي ويرفض ، وأن يضع ميزان الاختيار أمامه ، فما كل شيء يستحق التسجيل ، بل لابد له من إدراك نوقي دقيق »<sup>(٣)</sup>.

إن فن السيرة من أقوى الفنون وأكثرها تأثيرا ، ولا يقدر عليه إلا الموهوبون<sup>(٤)</sup> ، وفي أدبنا العربي قديما وحديثا ، سير كثيرة ، ولكن السير الحديثة استفادت من الآداب الغربية التي تفوق الأدب العربي في هذا الفن<sup>(٥)</sup>.

والسيرة نوعان ، ذاتية ، وغيرية ، ولشفيق جبري آثار في كليهما كما سيأتي .

### ١ - السيرة الذاتية :

وهي « التي يؤرخ الأدباء فيها لأنفسهم ، ويضمنونها سيرهم بأقلامهم »<sup>(٦)</sup> ، ولاشك أن منزلتها بين فنون الأدب لاتنكر ، لكونها تصلنا بأدق طبائع النفوس ، وتسجل لنا الحقائق ، ووقائع الأيام ، بأقلام من ارتبطوا بها ، وإن كان الصدق فيها محاولة لا أمرا متحققا<sup>(٧)</sup>.

(١) انظر : التراجم والسير ٩ ، محمد عبدالغني حسن ، دار المعارف ، ط الثالثة ١٩٨٠ م .

(٢) العمل الأدبي بين الإبداع والاداء ٣٥٢ .

(٣) فن السيرة ٨٤ ، د . إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، غير مؤرخ .

(٤) انظر : قسم أدبية ١٤ ، د . نعمات أحمد فؤاد ، عالم الكتب ١٩٦٦ .

(٥) انظر : فن السيرة ٥ .

(٦) العمل الأدبي بين الإبداع والاداء ٣٥٣ .

(٧) انظر : فن السيرة ١١٣ .

ولكتابة السيرة الذاتية شأن كبير في الأدب ، لأن الناس يحبون الوقوف على الأسرار<sup>(١)</sup>، ولكون التجربة الفردية جزءا من التجربة الإنسانية كلها .

وقد سجل جبري سيرته الذاتية في كتابين ، هما: (أنا والشعر) و (أنا والنثر)، وطمحت به همته إلى تأليف كتاب ثالث ، يسميه (أنا والناس) ، ولكنه لم يفعل .

وواضح من عنواني الكتابين أنه لم يقيد فيهما أحداث حياته الخاصة ، بل عني بعلاقته بالشعر والنثر فقط ، فهما إفضاء بأسرار الفن ، لا بأسرار الحياة<sup>(٢)</sup>، وهما من هذا الباب يشتملان على طرافة وجدة .

يقول في مقدمة (أنا والنثر) : « هذا كتاب أقص فيه قصة بياني ٠٠٠ كيف نشأت حياتي الأدبية ، وكيف تدرجت هذه الحياة من أفق إلى أفق »<sup>(٣)</sup>، ولكنه مع ذلك تعرض في كتابيه لبعض ملامح حياته الخاصة ، كمراحل دراسته الأولى ، ورحلاته ، ومشاركاته الثقافية ، غير أنها بقيت أشبه بالهوامش ؛ لكونه مهتما بإبراز التجارب الفنية في كتابة الشعر والنثر .

وقد عزا شكري فيصل تأليف هذين الكتابين إلى ذاتيته التي طغت عليه ، وعزلته ، إذ إنها « دفعت به إلى أن يتحدث عن حياته الأدبية ، عن ذاته بذاته »<sup>(٤)</sup> ، وأثنى عليهما ثناء عاطرا ، وبيّن شدة إعجابه بهما ، ورأى أنهما تضمنا سيرة من نوع خاص<sup>(٥)</sup>، وقال عن كتاب (أنا والشعر) : « ما أحسب أن أديبا عربيا استطاع أن يحدثنا عن تجربته الشعرية بمثل هذه الصراحة ، وهذا الوضوح الذي تنيره الأمثلة الحية »<sup>(٦)</sup>.

وربما كان تأليف هذين الكتابين ، محاولة لإيجاد هذا النمط من السير الذاتية في أدب العرب .

(١) انظر : أنا والنثر ٧ .

(٢) انظر : أنا والشعر ٥ .

(٣) ص ٥ .

(٤) مقدمة الديوان ٢٤ .

(٥) انظر : المرجع السابق ٢٤ .

(٦) المرجع السابق ٤٢ .

ففي ( أنا والشعر ) ، تحدث جبري عن أول عهده بنظم الشعر ، وذكر بعض أشعاره الأولى ، والشعراء الذين أعجب بهم وحفظ بعض أشعارهم .  
وكان صريحا ، وجريئا في نقد شعره ، حيث أشار إلى المعاني التي أخذها من غيره ، والألفاظ التي نقلها نقلا عن بعض الشعراء .

وخص الشعر الوطني بمبحث مستقل ، وكذلك الشعر الغنائي ، وشعر المناسبات والمرثي ، وتحدث عن مذهب في النظم ، ووحدة القصيدة وصيغتها .  
مما يؤخذ على الكتاب خروجه عن موضوعه الرئيس ، ففيه ثلاثة مباحث لاتمت إلى سيرة الكاتب الفنية إلا بسبب ضعيف ، وهي : ( الفكر الرياضي في أدبنا ) ، و ( سحر العبقرية ، الشعر ) و ( جباران عنيان ، مستقبل الشعر )<sup>(١)</sup> .

أما ( أنا والنثر ) فقد كان أكثر نضجا وإحكاما ، حيث جاءت مباحثه مرتبة متناسقة ، إذ بدأ بالحديث عن مدرسته الأولى وطرق التدريس فيها ، وضروب العلوم التي درسها ، وأثرت في توجهه الأدبي .

ثم فصل أنوار كتابته ، وجعلها ثلاثة ، فالأول دور الاستعداد ، والثاني دور التجربة ، والثالث دور العمل ، وتحدث بعد ذلك عن الفنون النثرية التي شارك فيها ، كالتأليف والمقالات بأنواعها ، والرحلات ، والترجمة ، وتفسير النصوص ، والتعريف بالكتب .

كما أسهب في الحديث عن ولعه باللغة ، وتتبع شواردها ، وعقد فصلا خاصا بمذهبه في الكتابة ، جعله خاتمة للكتاب .

لقد استطاع جبري في كتابه هذا ، أن يعقد بينه وبين القارئ ، علاقة روحية ، لوضوح أسلوبه ، وقوة بيانه ، وصدق آرائه ، مما يجعل القارئ يميل إلى التعاطف معه ، والتسليم بآرائه .

ويتبين القارئ كذلك ، أن جبري معجب بنفسه ، من خلال بعض الحواشي التي ملاحظها بآراء قيلت في بعض كتبه ، وفيها ثناء بالغ عليه ، يتجاوز الحقيقة ، كقول بعضهم : إن جبري « هو علم النقاد في لغة العرب الحديثة غير مدافع »<sup>(٢)</sup> ، وكان في

(١) انظر هذه المباحث بحسب ترتيبها في الصفحات التالية من أنا والشعر ٧٨ - ١٠٧ - ١١٦ .

(٢) من مقال ل محمد لطفي جمعة ، نشرته جريدة البلاغ في مصر في العدد الصادر في ١٦ أكتوبر سنة ١٩٣٢ م ، نقلا عن أنا والنثر ٨٥ .

مُكنته الاكتفاء باللمح دون الإطالة في النقل التي تدلّ على ولع بالذات وندرجسية ،  
توشك أن تجعل القراء ينفضون عنه .

غير أن مما يحمد له ، عدم اكتفائه بالسرد ، بل كان يعتمد إلى الاستشهاد على  
كل طور من أطوار حياته الأدبية ، بما يجلوها جلاءً تاماً ، من مقالات ورسائل  
وغيرها .

ومع كون هذين الكتابين ( أنا والشعر ) و ( أنا والنثر ) - كما قدمت - تسجيلاً  
للتجربة الفنية ، إلا أنه يمكن استخلاص كثير من صفات الأديب ، وأخلاقه ، من خلال  
أسلوبه ، ونمط تفكيره ، والقضايا التي يلحّ عليها .

فمن جهة تقييد التجارب الفنية ، يشعر المتلقي أنه تجاه شخصية تعمد إلى  
الابتكار وعدم التقليد ، مما يساعد في فهم نفسية صاحبها .

وحين تجده ينقد شعره ونثره ، في صراحة لامجمجة فيها ، تكبر في عينك هذه  
الشخصية الواضحة الصريحة ، وتستبين صفة أخرى من صفات هذا الأديب ، وهي  
حب الذات ؛ لأن نقده لنفسه - كما يقول شكري فيصل<sup>(١)</sup> - جاء من قبل الخشية من  
أن يجور الناقدون عليه ، بأهوائهم المتباينة ، ومشاربهم المختلفة .

لقد كان هذان الكتابان ، أشبه بصوى وعلامات تنير الطريق أمام الباحث في  
حياة جبري وأدبه ، وتدله على المواطن التي تحسن دراستها ، فهما بحق مصدران  
نقيسان لاغنى لدارس حياته وأدبه عنهما .

### ٣ - السيرة الغيبية :

وهي « التي يكتبها غير أصحابها ، ويختارون حوادثها بأنفسهم ، ويقومون على  
تنسيقها وتفسيرها ، ويصدرون أحكامهم عليها بالقبول أو الرفض ، وميزة هذا اللون  
أنه يمنح صاحبه الحرية في النقد والاختيار ، ولايجره إلى الغلو في النتائج والمبالغة  
في الأحكام »<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر : مقدمة النيران ٢٤ بتصرف .

(٢) العمل الأدبي بين الإبداع والأداء ٣٥٥ .

ولكن تلك الحرية في النقد والاختيار ، يشوبها غير قليل من الخطورة عند إصدار الأحكام ، ومن أجل هذا كان شفيق جبيري يقدم رجلا ، ويؤخر أخرى ، في مسألة كتابة التراجم ، فهو يقول : « إنني لأستصعب مثل كتابة التراجم ٠٠٠ لأن فن الترجمة يستلزم مهارة لا يملكها كل واحد من الكتاب ، إن صاحب التراجم يلزمه أن يبعث رجاله ٠٠٠ فضلا عما يحتاج إليه من نزاهة في الحكم ، وحسن نية في النقل »<sup>(١)</sup>.

ولقد لمس جبيري أن نمط التراجم في القديم مختلّ ترتيبيا وتنسيقا ، وقال : إن أدبنا القديم مضطرب فكره الرياضي ، ويعني به تسلسل أجزاء الموضوع بحسب ترتيبها الطبيعي<sup>(٢)</sup> .

وألح في نقده لكثير من أساليب الترجمة قديما ، كأطلاق الأوصاف المتشابهة المتقاربة ، مثل قولهم : « فلان فرد دهره ، وشمس عصره ، وفلان أعجوبة الزمان ونادرتة ٠٠ » ومن تعليقه الساخر على هذه الجمل قوله : « فكان الكتاب والشعراء كلهم أعاجيب الزمان ونوادره وأحاد الدهر وشموسه »<sup>(٣)</sup>.

وفي معرض نقده لكتب تاريخ الأدب في هذا العصر ، قال : إن تلك الكتب لم تبين « الآثار التي أبقاها شاعر من الشعراء في أهل عصره ، ولم توضح العوامل التي عملت في هذا الشاعر حتى قال شعره ، ولا ذكرت كيف نشأ خيال هذا الشاعر ، وكيف نما حسه وشعوره ، لم تبين الظروف التي قال في خلالها شعره »<sup>(٤)</sup>.

وهو في تلك الآراء الناضجة ، يتفق مع كثير من معاصريه في رؤيتهم لفن السير والتراجم ، فأحد الباحثين يشير إلى أن غلبة العاطفة علينا ، جعلت ترجماتنا لعظماننا تنقصها كثير من سمات الواقعية ، والنقد الحر الأصيل ، حتى لكأن المترجم له مبراً من كل عيوبنا<sup>(٥)</sup> ، ويشير آخر إلى أن فهم نفسية الشخصية أمر مهم عند دراستها<sup>(٦)</sup> ، ويذهب ثالث إلى أن المهم في كتابة السيرة ، هو عرض الحقائق عن

(١) من مقدمته لكتاب الأدب العربي المعاصر في سورية لسامي الكيالي ، ٨٠ " بتصرف " .

(٢) انظر : أنا والشعر ٧٨ .

(٣) الجاحظ معلم العقل والأدب .

(٤) مقال ( نقد المؤرخات الأدبية ) مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

(٥) انظر : قمم أدبية ١٢ .

(٦) انظر : صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر ٦ .

المترجم له ، أتق عرض ، والمواصة بينها ، وتحليلها على ضوء علم النفس ، وبيان أثرها في البيئة ، وأثر البيئة فيها<sup>(١)</sup> .

إذا فجبري يرى أن على الكاتب في هذا العصر ، أن يستخرج أكثر أحوال المؤلفين من مؤلفاتهم<sup>(٢)</sup> ، بل إنه يرى أن لضرورة للاستعانة بأراء الآخرين فيهم ، كما أنه يرى أن من مقومات الدراسة الجيدة لحياة الأديب أو الشاعر ، أن تُصوّر نواحي شخصية كل منهما تصويراً كاملاً<sup>(٣)</sup> ، مع استقلال في الحكم<sup>(٤)</sup> .

كانت تلك ملامح نظريته في فن كتابة السيرة ، فما مدى تطبيقه لما دعا إليه ؟!

وقبل الإجابة عن هذا السؤال ، يلزم التذكير بآثاره في هذا المجال ، وهي :

- ١ - المتنبى مالى الدنيا وشاغل الناس .
- ٢ - الجاحظ معلم العقل والأدب .
- ٣ - أبو الفرج الأصبهاني .
- ٤ - محاضرات عن محمد كرد علي .
- ٥ - أحمد فارس الشدياق .
- ٦ - مقالات عن أناتول فرانس ( مخطوط ) .

لقد كان جبري أديبا ، يحب الانطلاق مع خواطره ، فلا يتقيد بمنهج محدد في دراسة الشخصيات ، ولقد صرح بذلك في كتابه عن الجاحظ ، حيث قال : « وأسلوبنا في هذه الدراسة ، إنما هو الأسلوب الذي اتبعناه في دراسة شعر المتنبى ، فإننا لانتقيد بأحد ، وإنما ننظر في كتب الجاحظ ، فندون ما يلهنا إياه هذا النظر المطلق »<sup>(٥)</sup> .

لقد كانت دراسته للمتنبى وللجاحظ مبنية على قراءة آثارهما ، واستنباط الخصائص العامة لكل منهما ، وتقييد الفكر ، والاسترسال في تقييد الخواطر التي يضم كلا منها عنوان مستقل .

- (١) انظر : التراجم والسير ١٤ .
- (٢) انظر : أبو الفرج الأصبهاني ٩ ، شفيق جبري ، مؤسسة الرسالة ، ط الأولى ١٤٠٧ هـ .
- (٣) انظر : تقريره لكتاب الجاحظ ، لخليل مردم ، مجلة المجمع مج ١٠ ، ج ١٠ ، ص ٦٢٧ .
- (٤) انظر : مجلة المجمع ، مج ٧ ، ج ٤ ، ص ١٤٨ .
- (٥) الجاحظ معلم العقل والأدب ٢٣ .

يقول جبري عن نفسه إنه مولع بالتحليل ، ويتقسيم الفكرة أقساماً ، ويتوضيح كل قسم على حدة<sup>(١)</sup> ، ويتضح ذلك من خلال فصول كتابيه هذين :

ففي دراسة المتنبي ، يعقد فصلاً عن أخلاقه وآخر عن تعلمه ، وثالثاً عن فلسفته ، وقد يجعل قضية من القضايا التي أثرت حوله ، في فصل مستقل ، مثل ( هل كان المتنبي شعوبياً ؟ ) و ( نسب المتنبي ) . .

ومن المواضيع التي أفاض فيها ، وأسهب في تحليلها قضية نسبه ، وأبدى عجباً ممن ترجموا له ، ولم يتحدثوا عن أصله<sup>(٢)</sup> .

وفي دراسته عن الجاحظ ، كان من المباحث التي أولاهها عنايته : حياته ، وثقافته وعصره ، وأصوله في التحقيق ، وشعوره الديني ، ومذهبه في التفسير ، وضحكه ، وتهكمه ، ومذهبه في النقد ، والأدب ، ثم تفكيره ، وفنه .

وفي كتابه هذا عن الجاحظ ، بدأت الناحية المنهجية في كتابة السيرة ، تظهر عنده ، وتصبح أكثر نضجاً ، حيث أورد في مقدمته منهجه ، الذي سيسير عليه في تناوله لحياة الجاحظ<sup>(٣)</sup> ، ثم عقد فصلاً عن حياته بدءاً بمولده ، وانتهاءً بوفاته ، ثم شرع في الحديث المفصل عن ثقافته وفنه وما إلى ذلك ، ولم ينس أن يحقق سنة ميلاده تحقيقاً علمياً ، وكذلك اسمه ونسبه<sup>(٤)</sup> .

على أن كتابه عن أبي الفرج الأصبهاني ، هو أكثر كتبه التزاماً بالطريقة المنهجية ، وترتيباً وتنسيقاً ، ففيه بدأ بالحديث عن عصر المترجم له ، ثم ثنى بحياته ونشأته ، وأخلاقه ومشاركاته العلمية ، ثم عقد فصلاً لجوانبه المختلفة ، فتحدث عنه شاعراً وناثراً ومؤرخاً وراوية .

ولم يكتف بذلك ، بل زاد فصلاً ، أورد فيه منتخباتٍ من آثار الأصبهاني الشعرية والنثرية ، وحلّل بعض نصوصه النثرية تحليلاً أدبياً بديعاً<sup>(٥)</sup> .

(١) انظر : أنا والنثر ٨٢ بتصرف .

(٢) انظر : نسب المتنبي ، مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ٥ ، ص ٢٨٣ .

(٣) انظر : الجاحظ ٢٨ .

(٤) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ٣٤ .

(٥) انظر : أبو الفرج الأصبهاني ٣٢ .

قلت - من قبل - إن جبري أديب ، يحب الانطلاق مع خواطره ، دون أن يتقيد بمنهج محدد معلوم إلا ماندر ، فهو يترجم للشخصيات بروح الأديب ، الذي يحرص على انتقاء الألفاظ العذبة ، والخيالات اللطيفة<sup>(١)</sup>.

وقد أوقعه هذا الاسترسال في تقييد الخواطر عن كل أديب ، في اضطراب المنهج ، فحينما تجد الفصول في الكتاب الواحد غير متناسقة<sup>(٢)</sup> ، وحينما يقدم الحديث عن حياة الشخص قبل الحديث عن عصره<sup>(٣)</sup> ، وقد يُغفل الحديث عن حياته مطلقا ، كما فعل في محاضراته عن محمد كرد علي ، إذ بدأ بالحديث عن عصره ، ثم خرج إلى الحديث عن صحافته<sup>(٤)</sup>.

كما أن عنصر القصة ، الذي لاتستغني عنه السيرة الأدبية<sup>(٥)</sup> ، مفقود في كتبه ، إلا في مواضع قليلة<sup>(٦)</sup>.

ومن المآخذ على كتبه في السيرة ، إكثاره من النقول ، حتى لتكاد تطغى على شخصيته وأسلوبه<sup>(٧)</sup> ، وإنما كانت طريقته أن يلائم بين ماينقل ، ويندر أن تجد له تعليقا أو إشارة<sup>(٨)</sup>.

كما أن دراسته للجاحظ ، أشبه بالطريقة المدرسية ، منها بالدراسة الموضوعية الناجحة ؛ ذلك لأنه يعمد إلى الإكثار من النقل ، ويث جمل تشرح أو توضح أو تريب أو تلخص الفكرة ، وفي نظري أنها دراسة سطحية ، كما أن عنوان الكتاب غير دقيق ، وكان الأولى أن يكون ( دراسة في كتاب الحيوان ) أو ( الجاحظ من خلال كتاب الحيوان )<sup>(٩)</sup>.

- 
- (١) انظر : وطن المتنبّي ، مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ٥ ، ص ٢٧٦ .  
(٢) انظر مثلا : أحمد فارس الشدياق ، فصل (ثورته) ص ٧٧ ، وفصل (كتبه في اللغة) ص ١٩٥ .  
(٣) انظر : المصدر السابق .  
(٤) انظر : محاضرات عن محمد كرد علي ٧ و ١٥ ، شفيق جبري ، مؤسسة الرسالة ، ط الأولى ١٤٠٩ هـ .  
(٥) انظر : فن السيرة ٢٠ .  
(٦) انظر مثلا : أحمد فارس الشدياق ٤٢ .  
(٧) انظر مثلا : أبو الفرج الأصبهاني ١٣ - ١٤ ، والجاحظ ٨٦ - ٨٧ .  
(٨) انظر مثلا : حياة المتنبّي ، مجلة المجمع مج ١٠ ، ج ٥ ، ص ٢٩٤ .  
(٩) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ١٢٥ مثلا .

وفي هذا الكتاب يستطرد جبيري استطرادات كثيرة ، تخرج به عن الموضوع الرئيس<sup>(١)</sup> ، وأحيانا يطيل في شرح أمور يمكن اختصارها ، كإفاضته في الحديث عن المعتزلة ، وأصل تسميتهم وطبقاتهم وطوائفهم ، بحجة أنه يريد التهيئة لحديثه عن الجاحظية ، ومن استطراداته العجيبة خروجه إلى ذكر قصة وأصل بن عطاء<sup>(٢)</sup> مع بشار ، وهذا في نظري خلل كبير في منهجه ، ولعله تأثر بالجاحظ في هذا الأسلوب من حيث لا يشعر<sup>(٣)</sup> .

وهو في كتبه كلها ، لا يكتفي بسرد سيرة الشخص فقط ، بل يبت آراءه النقدية واللغوية والاجتماعية في خلالها<sup>(٤)</sup> ، ويناقش كذلك بعض الآراء التي لا يوافقها ، كبعض آراء المستشرقين في الجاحظ<sup>(٥)</sup> ، وربما عقد موازنة بين أسلوب المترجم له وأساليب غيره من عرب ومستشرقين<sup>(٦)</sup> .

ومما يؤخذ على جبيري ، في أغلب كتبه ، أنه لم يكن يتتبع التدرج التاريخي ، وتأثير الأحداث على نفس صاحباها ، وهو أمر مهم لكاتب السيرة<sup>(٧)</sup> .

ومما ينبغي الإشارة إليه ، أن المؤلف أو كاتب الترجمة « يقبل على السيرة التي تعجبه أو تعجب روح العصر ، ونزعات القراء ، أو تثير لديه رغبة ذاتية ، لأن السيرة ... قد تكون تعبيراً ذاتياً عن نفسية كاتبها »<sup>(٨)</sup> .

وانظر - لتصديق هذا الرأي - في الأعلام الذين كتب جبيري عنهم ، تجد علاقة بينه وبين كل واحد منهم ، ولقد كان هو مؤمناً بأن الكتابة عن الأشخاص ، ينبغي أن يسبقها داع نفسي .

- (١) انظر : ص ٤٤ و ٥٠ و ٦٠ على سبيل المثال .
- (٢) وأصل بن عطاء الغزالي ( ٨٠ - ١٣١ هـ ) رأس المعتزلة ، من أئمة البلغاء والمتكلمين ، وهو الذي نشر مذهب الاعتزال ، من تصانيفه معاني القرآن ، وطبقات أهل العلم والجهل . ( الأعلام ١٠٨/٨ ) .
- (٣) انظر : مبحث ( المعتزلة الجاحظية ) ١٦٣ .
- (٤) انظر مثلاً : الشدياق ١٢٨ و ٢٠٠ ، وأبو الفرج الأصبهاني ٩ و ٤٠ ، ومحاضرات عن محمد كرد علي ١٠٢ و ١١٠ .
- (٥) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ١١١ .
- (٦) انظر : المصدر السابق ٢٢٨ و ٢٣٦ ، وانظر : محاضرات عن محمد كرد علي ص ٨٢ .
- (٧) انظر : فن السيرة ٨٣ .
- (٨) المرجع السابق ٨٠ .

فقد أراد أحد الأدباء الكتابة عن أحد الأشخاص ، فعرض الأمر على جبري ، فقال له : « لا أنصحك بالإقدام على هذا العمل إلا في حالتين ، إما أن تكون تحب الرجل حبا جما ، أو تكرهه كرها جما »<sup>(١)</sup>.

ولقد انطبق هذا القول على الذين كتب عنهم ، فهو يحبهم جميعا حبا جما ، ويعجب بهم كل الإعجاب ، أما الأشخاص الذين يكرههم كرها جما ، فقد حال حياؤه وصفاء نفسه دون أن يتناولهم بالنقد والتجريح .

ولكن ما مظاهر الاتفاق بينه وبين مُترجميه ، التي جعلته يعجب بهم ويحبهم ؟ لو رجعت إلى مبحث ( شخصيته ) في الفصل الأول من هذا البحث ، لتبينت لك الصفات التي تصله بكل واحد منهم ، فهو معتد بنفسه كالمثني ، ومولع باللغة كالشدياق ، الذي يتفق معه أيضا في نظرتة إلى الزواج ، ومترهب كإناطول فرانس ، ومحب للقديم وشغوف باللغة مثله أيضا<sup>(٢)</sup> ، ومشبه الجاحظ في إثارة الأسلوب السهل المشرق ، مع كثرة الاستطرادات<sup>(٣)</sup> ، كما دعاه إعجابه الشديد بكتاب الأغاني ، إلى إفراد مصنفه أبي الفرج الأصبهاني بكتاب مستقل ، يورد فيه ملامح سيرته وأدبه . أما ترجمته لمحمد كرد علي ، فقد كان مدفوعا فيها ، بعوامل شخصية ، إذ كانا صديقين متصافيين ، وقد أولى الباحثون أهمية كبرى للكتابات التي كتبها باحثون في مجال السير والتراجم ، عن أعلام ارتبطوا بهم بالصلات الشخصية ، وعدوها في درجة الشهادة ، ويغلب على صلة التلمذة طابع الولاء والحب والدفاع<sup>(٤)</sup>.

على أن المعاصرة ذات وجهين مختلفين ، فقد تكون من أسباب الحكم الصحيح على المترجم لهم ؛ لأن وجود كاتب السيرة في عصر المترجم له ، يكون أدعى إلى الإحاطة بكثير من نواحيه ، وقد تكون سببا إلى المجاملة على حساب الحق<sup>(٥)</sup>.

(١) عشرة من الناس ٨٨ .

(٢) انظر : مجلة المجمع ، مج ٧ ، ج ٤ ، ص ١٥٧ - ١٥٩ .

(٣) وانظر بعض وجوه الشبه في مقالاته ( وطننا العقلي ) ص ٢٤ ، جريدة الشرق الأوسط ، العدد ٥١٨٥ الصادر في ٢٠/٧/١٩٩٣ م .

(٤) انظر : صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر ٢٥٥ .

(٥) انظر : التراجم والسير ١٠٦ .

إن كاتب السيرة ، ينظر إلى من يترجم لهم من عدة زوايا ، تتشكّل بفعل العلاقة الشخصية ، أو بتأثير الرأي العام ، أو لتحقيق مآرب<sup>(١)</sup> ، وأكثر هذه الزوايا تأثيرا العلاقة الشخصية ، والعلاقة النفسية - كما قدّمت - وهما علاقتان تفضيان كثيرا إلى المبالغة في مديح المترجم لهم ، وستر مثالبهم ، وشواهد ذلك في كتب جبيري واضحة بيّنة ، فهو ينعث الجاحظ بأنه « جاوز أفق البشرية ، وحلق في جو ، لا يصل إليه كل واحد من الناس »<sup>(٢)</sup> ، ويجعل أبا الفرج الأصبهاني « على رأس الخالدين »<sup>(٣)</sup> ، ويقول عن عبقرية الشدياق : إنها « تكاد تكون أعظم عبقرية في القرن التاسع عشر »<sup>(٤)</sup> .

وتلك المبالغات في المديح ، تدفعه إلى الدفاع عنهم ، وتفنيد التهم الموجهة إليهم ، ولكن الحماسة والعاطفة تسيطران عليه ، فيأتي دفاعه عنهم سانجا حيناً<sup>(٥)</sup> ، ومتكلفا حيناً<sup>(٦)</sup> ، ومتفاضيا حيناً آخر عن تهم لا يجد لها ردا ولا تفنيدا<sup>(٧)</sup> .

وليس معنى ذلك أنه لا ينقد من يترجم لهم أبدا ، بل إنه يناقش كثيرا من آرائهم ، ومذاهبهم في الحياة والأدب ، فيرى - مثلا - أن من عيوب المتنبي تكرار المعاني<sup>(٨)</sup> ، وقد يقسو عليه ، فيصف بعض مراثيه بأنها شبيهة بصياح النواحات<sup>(٩)</sup> ، ويناقش الجاحظ في رأي له في الشعر الجاهلي<sup>(١٠)</sup> ، ويؤاخذه على ولعه بالإضحاك<sup>(١١)</sup> ، وينقد صاحب الأغاني ، لإغفاله تحقيق بعض الروايات ، ويرد بعضها مما لا يقبله العقل<sup>(١٢)</sup> ، كما يسخر من بعض أشعار الشدياق<sup>(١٣)</sup> ، وينتقد ميله إلى غرائب الألفاظ

(١) انظر : الحركة الأدبية في دمشق ١٤٤ " بتصرف " .

(٢) الجاحظ معلم العقل والأدب ١٧٥ .

(٣) أبو الفرج الأصبهاني ٣١ .

(٤) أنا والنثر ١١١ .

(٥) انظر مثلا : دراسة الأغاني ٢١ و ٤٨ .

(٦) انظر : أخلاق المتنبي ، مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ٩ ، ص ٥٢٣ .

(٧) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ١٧٤ .

(٨) انظر : عبقرية المتنبي ، مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ١٢ ، ص ٧٢٢ .

(٩) انظر : إحساس المتنبي ، مجلة المجمع ، مج ١٠ ، ج ١٠ ، ص ٥٩٠ .

(١٠) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ٢١٧ .

(١١) انظر : المصدر السابق ١٩٨ .

(١٢) انظر : دراسة الأغاني ٦١ و ٥٩ .

(١٣) انظر : أحمد فارس الشدياق ٢٣٠ .

واهتمامه بها<sup>(١)</sup>.

وعلى حبه لمحمد كرد علي ، وإعجابه به ، لم يُخفِ عدم إعجابه بكتابه ( خطط الشام ) من حيث التنسيق والترتيب<sup>(٢)</sup> ، ولم يقف صامتا ، تجاه ما يجده من تناقض ، في بعض أخلاقه وطبائعه<sup>(٣)</sup> ، بل زاد فتعقبه في بعض أغلظه اللغوية<sup>(٤)</sup>.

والحق أن نقداً تلك تحسب في صالحه ؛ لكونه ألقى عاطفته في هذه المواضع ، وقال ما يقبله الحق ، وبعضه الواقع ، ولو أنه تجردَ هذا التجرد في كل ما كتبه عنهم لكانت كتبه أعلى شأنًا ، وأرفع قدرا .

ومهما يكن من أمر ، فإن ترجمة جبري لأولئك النفر ، كانت محاولة جادة منه لتقريبهم إلى الأذهان ، وبسط خصائص أدبهم ، وعبقرياتهم ، وقد « نهج فيها نهجا خاصا تجلى فيه شعوره الذاتي وذوقه الأدبي »<sup>(٥)</sup> ، ولكنه لم ينهج نهجا علميا محددًا ، فكان ذلك مما أوقعه في خلل المنهج ، واضطراب الترتيب .

علما أن بعض الدارسين ، ذهب إلى أن الدراسات الأدبية للشخصيات ، إذا كانت تنهج نهج شفيق جبري في دراسته للمتنبئ مثلا أو الجاحظ ، تدخل تحت عنوان ( الاستعراض التصويري ) ، فلا هي من التراجم ، ولا من البحوث الأدبية ؛ لأن المؤلف يرسم بعض ملامح الشخصية ويستعرض بعض الحوادث التي صادفتها ، ويصور انفعالاتها بهذه الحوادث ، ويخلع الحياة على هذه الانفعالات ، ويدرس بعض آثار هذه الشخصية<sup>(٦)</sup>.

يضاف إلى ذلك أن إحساس المؤلف بحياة مترجميه ، وظروفهم وحالاتهم النفسية ، وتطبيقها على تجاربه هو ، يجعل عنصر التجربة الشعورية ذا وجود حقيقي في ترجمة الشخصية<sup>(٧)</sup> ، والتجربة الشعورية هي التي قلت عنها سابقا ، إنها الصفات

(١) انظر : المصدر السابق ٢٠٧ .

(٢) انظر : محاضرات عن محمد كرد علي ٦٩ .

(٣) انظر : المصدر السابق ٦٥ .

(٤) انظر : المصدر السابق ١١١ .

(٥) فصول في اللغة والأدب ١٤٧ .

(٦) انظر : النقد الأدبي ٩٤ ، سيد قطب .

(٧) انظر : المرجع السابق ٩١ " بتصرف " .

والعلائق ، والمواقف المتشابهة التي تربط بين المؤلف وبين من يترجم لهم ، وهي جليّة كل الجلاء في علاقة جبري بالأعلام الذين كتب سيرهم .  
ولاشك أن توافر التجربة الشعورية الحية ، والصياغة الأدبية الموحية ، هي التي تصبغ السيرة بصبغة أدبية رائعة<sup>(١)</sup> ، تقربها إلى الأفهام ، وتأنس بها الأنواق .  
بقيت كلمة أخيرة ، وهي أن جبري روى كلمة لأناتول فرانس ، يقول فيها : إن الذين « يتبجّحون بأنهم يضعون في مؤلفاتهم شيئا غير لواعج أنفسهم ، فهم واهمون »<sup>(٢)</sup> ، فهل كان إيراد هذا الرأي دون نقاش إقراراً به ؟ أي أنه عندما كتب سير أولئك الأعلام إنما كان يتحدث عن نفسه ؟ !

---

(١) انظر : النقد الأدبي ٩٢ .

(٢) شيء عن أناتول فرانس ، مقال بقلم شفيق جبري ، ص ١٥٦ ، مجلة المجمع ، مج ٧ ، ج ٤ .

## ج - أدب الرحلات :

يعد أدب الرحلة من فنون النثر التي عرفها العرب قديما ، « وكانت الرحلة عنصرا قويا في حياة المجتمع الإسلامي في عصوره الزاهرة »<sup>(١)</sup> ، وقد ظهرت في هذا الفن مصنعات كثيرة ، واشتهر كثيرون برحلاتهم ، وظل هذا الفن يتطور ، حتى جاء العصر الحديث ، فتغيرت سماته تبعا لعدة عوامل ، وازدهر ازدهارا كبيرا .

فبعد أن كان في القديم ، لا يخرج غالبا عن تحديد المواقع ، ووصف الطريق ، وتسجيل الأحداث التي تقع ، « أخذ في أدبنا المعاصر طابعا جديدا ، هو صورة التغير النفسي ، ورسم الأثر العاطفي والوجداني للكاتب »<sup>(٢)</sup> .

وعلى أي حال ، فإن بعض الباحثين يذهب إلى أن « الرحلات من أهم فنون الأدب العربي »<sup>(٣)</sup> ، وربما دعاه إلى ذلك أن هذا اللون من الأدب ، يمكن أن يعد علما مطبوعا بالطابع الأدبي ، أو أدبا بالمفهوم القديم ، وهو الأخذ من كل فن بطرف<sup>(٤)</sup> ، أي أنه فن تجتمع فيه أغلب الفنون الأخرى .

ولجبري رأي في كتب الرحلة ، يذهب فيه إلى أنها تمتع قراءها ؛ لأنها « تمهد لنا سبيلا إلى الاتصال بمبلغ نوق الكاتب وشعوره وفهمه . . . وكثيرا ما نشارك كاتب الرحلة في متعة المشاهد التي يشهدها ويصفها ، فكأننا نسايره في رحلته ، ونؤاكله ، ونشاربه ونجالسه »<sup>(٥)</sup> ، هذا رأيه ، فهل أمتع هو قراءه فيما كتب من رحلات ؟ هذا ما أرجو أن يجيب عنه هذا الجزء من البحث .

لقد قام جبري بعدة رحلات ، سجل عنها انطباعاته ، ومشاعره ، وهي على هذا

النحو :

- 
- (١) الجغرافية والرحلات عند العرب ١٥ ، نقولا زيادة ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٢ م .
  - (٢) أضواء على الأدب العربي المعاصر ٧٦ ، أنور الجندي ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٣٨٨ هـ .
  - (٣) الرحلات ٦ ، د . شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ١٩٨٧ م .
  - (٤) انظر : مقال ( أدب الرحلات في الإسلام ) بقلم أحمد أبوسعد ، ص ٥٨ ، المجلة العربية ، السنة الأولى ، العدد ٢ ، رجب ١٣٩٦ هـ .
  - (٥) أحمد فارس الشدياق ١٧٩ .

- ١ - إلى أوروبا ، في تشرين الأول سنة ١٩٣٤م<sup>(١)</sup> ، ونشر مقالاته عنها في بعض الصحف والمجلات ، ثم جمعها تحت عنوان ( على صخور صقلية ) ولكنها لم تطبع .
- ٢ - إلى نجد والحجاز والعراق<sup>(٢)</sup> ، في آذار سنة ١٩٣٥م ، ونشر عنها بضع مقالات في إحدى جرائد دمشق<sup>(٣)</sup> .
- ٣ - إلى الولايات المتحدة الأمريكية مرتين ، الأولى عام ١٩٥٣م<sup>(٤)</sup> ، والأخرى عام ١٩٥٥م<sup>(٥)</sup> ، وجمع مقالاته عنهما في كتاب سماه ( أرض السحر ) .
- ٤ - إلى بعض البلدان العربية ، كفلسطين ومصر ولبنان ، في أزمئة متفرقة<sup>(٦)</sup> .
- وحيث إن المتوافر بين يدي الباحث ، فيما يتعلق بأدب الرحلة عند جبيري ، هو كتابه ( أرض السحر ) ، وبضع مقالات ، أثبتتها في كتابه ( أنا والنثر ) ، فسوف تكون أغلب شواهد هذا الجزء ، مأخوذة من ( أرض السحر ) .
- و ( أرض السحر ) تسجيل لانطباعاته عن رحلتيه اللتين قام بهما إلى أمريكا في عامي ١٩٥٣م ، و١٩٥٥م ، كما قدمت .
- وفي البداية ، يبدو على جبيري حبه للتنسيق والتبويب ، وذلك صريح في نقده لرحلة الشدياق ، حيث قال : « إن عيب رحلته من حيث محاسن التنسيق ، أنه لم يبوبها ، على كثرة ما عالج فيه من الموضوعات المتباينة في كل أفق من أفاق الحياة ، حتى إن القارئ يكاد يضيع في رحلة فوضى »<sup>(٧)</sup> .
- ورحلتا جبيري إلى أمريكا ، منسقتان تنسيقاً مختلفاً :
- فالأولى التي كان هدفه فيها حضور مؤتمر الثقافة في ( برنستن ) ، مرتبة زمنياً ، على حسب ترتيب الولايات التي زارها .

(١) انظر : أنا والنثر ٨٨ .

(٢) انظر : المصدر السابق ٩٢ .

(٣) انظر : المصدر السابق ٨٨ .

(٤) انظر : أنا والنثر ، الصفحة نفسها .

(٥) أرض السحر ٢٢٣ .

(٦) انظر : صناع الألب ١٣٩ .

(٧) أحمد فارس الشدياق ١٧٥ .

أما الآخرى ، فقد نسقتها على هيئة خواطر ، جعل لكل خاطرة منها عنوانا ، فالأولى عنوانها ( الحية والأرنب )<sup>(١)</sup> ، وضممتها حديثا عن اليهود وطرقهم في خداع الرأي العام هناك ، والثانية عنوانها ( بلاد الفسيفساء )<sup>(٢)</sup> ويعني بها اختلاف أساليب الحياة ، تبعا لاختلاف الأصول والأعراف ، وبلغ بخواطره تلك ثلاث عشرة خاطرة .

ولقد بدأ جبري برحلته هذه بداية تقليدية ، كأغلب الرحلات<sup>(٣)</sup> ، مشيرا إلى ظروفها . حيث ذكر تاريخ الرحلة ، وفكرتها وهدفها ، وبداياتها ، ومواقع له في أثناء سفره بين المطارات ، وماحدث له في كل محط من محاط رحلته ، ولكنه لم ينس أن يجعل في هذه المقدمة ، بعض ماثير حس القارئ وتشوقه ، وذلك فيما يتعلق بخرافة التشاؤم من السفر في يوم الأربعاء ، وهو اليوم الذي سافر فيه<sup>(٤)</sup> .

يقول جبري : « لكل كاتب رحلة نزعة تغلب عليه ، فلا يكاد يتشابه كاتبان في وصف أي رحلة »<sup>(٥)</sup> ، فما النزعة التي غلبت عليه في رحلته ؟ !

إن طابع رحلاته كلها - كما قال - أدبي محض ، فيه كثير من وصف الطبيعة<sup>(٦)</sup> ، غير أن لكل رحلة من رحلاته سمة ظاهرة ، ونزعة غالبية عليها ، فأما رحلته الأولى إلى أوروبا ، فقد غلب عليها الأسى لضياح مجد العرب ، لما رأى المجد الأوروبي<sup>(٧)</sup> ، ورحلة نجد والحجاز غلبت عليها الخواطر القومية والأدبية<sup>(٨)</sup> ، فهو فيها مولع بوصف الصحراء ، وشموخها ، بأسلوب أدبي ممتع .

(١) انظر : أرض السحر ٢٢٦ و ٢٢٨ .

(٢) انظر : أدب الرحلة ١٠٦ ، د . حسين نصار ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، مصر ، ط الأولى ١٩٩١ م .

(٣) انظر : المصدر السابق ٩ .

(٤) أحمد فارس الشدياق ١٧٩ .

(٥) انظر : أنا والنثر ٨٩ .

(٦) انظر : المصدر السابق ٩١ .

(٧) انظر : المصدر السابق ٩٢ .

ويقول أيضا في نبرة اعتزاز بتاريخ هذه الجزيرة العظيمة : « لولا نجد ، ولولا الصحراء ما عرفت السر في كثير من شعر جاهليتنا ... »<sup>(١)</sup>.

أما رحلته الثالثة ( أرض السحر ) ، فقد غلب عليها وصف الطبيعة في المقام الأول ، ووصف الجامعات والمدارس في المقام الثاني ، ولقد صرح بذلك فقال : « من الموضوعات التي امتزجت بأجزاء نفسي ... وصف الطبيعة ، ويكاد هذا الوصف في رحلتي « أرض السحر » يستغرق هذه الرحلة كلها ، ولكني لا أميل ... إلى الصور الغريبة ... فأنا ميال إلى الصور الواقعة »<sup>(٢)</sup>.

وميله إلى الصور الواقعة ، وعدم اشتطاطه في الخيال ، جارٍ على أسلوب المعاصرين في أدب الرحلة ، إذ إن نسبة الخيال في كتب الرحلة بصورة عامة قليلة<sup>(٣)</sup>.

ومن قوله في رحلته هذه ، مبينا ولعه بالطبيعة : « لايهمني شيء ... مقدار ماتهمني الفرجة ، فأكاد أغرق في مشاهد الطبيعة ، ولا أحول بصري عنها »<sup>(٤)</sup> ، وفي موضع آخر يصف مشهدا من المشاهد الساحرة : « عوضا عن أن تجد سلاسل من جبال ، فإنك تجد سلاسل من شجر يتصل بعضها ببعض ، وتجوّز من حين إلى حين آخر أنهاراً كأنها بحيرات يطيف بها الشجر »<sup>(٥)</sup>.

وفي موضع آخر من الرحلة ، يوضح سر تعلقه بالطبيعة ، فيقول : « قد يكون الحديث عن الطبيعة غالبا ؛ لأنها تصنف نفوسنا ، وتلين عواطفنا ، وتشحذ شعورنا ، وتصل خيالنا »<sup>(٦)</sup> ، ويمكن أن أضيف سببا آخر لتعلقه بها ؛ مستقى من ملامح شخصيته ، وهو حب العزلة والابتعاد عن الناس ، فكانما وجد فيها الأنيس والصاحب .

- 
- (١) أنا والنثر ٩٣ .
  - (٢) المصدر السابق ٦٢ .
  - (٣) انظر مقال : دعوة لدراسة أدب الرحلات في تراثنا العربي ، بقلم د. عبد الحميد النساج ، ص ٩٠ ، مجلة الفيصل ، العدد ١٨٦ ، نور الحجة ١٤١٢ هـ .
  - (٤) أرض السحر ١٧ .
  - (٥) المصدر السابق ٤٢ .
  - (٦) المصدر السابق ٧٣ .

واستمع إليه ، وهو يصف مشهداً من المشاهد ، في لفظ موج ، وخيال عذب ، حتى لكأنك تراه بأب عينك ، وذلك في قوله : « استفتت في الصباح ، فآلقت نظري على البحر من الشباك ، البحر أمامي ، وموجه ماتنك موسيقاه اللينة قريبة مني على بضع خطا ، يصل إلى الرمل الأبيض ، ثم يرتد عنه ، حرصاً على محاسن القصور المبعثرة في أطراف الجبل ، وقد غرقت هذه القصور في شجر الجبل ، إنني أكتب هذه الكلمات ، وموسيقى الموج ماتزال ملء أذني ، وحركاتها المنسقة ملء عيني ، والضباب يغطي الشجر ، والشجر يغطي البيوت ، فالطبيعة في ثوبين متناقضين : ثوب أبيض ، وهو ثوب الموج الذي يصل إلى أطراف الجبال والقصور ، ليحمل إليها ابتسام الحياة ، وقد كان في ظلمة الليل أروع من الموت ، وثوب أسود ، وهو ثوب الضباب الذي لا يريد أن يتخلى عن تجهمه وكأبته »<sup>(١)</sup>.

وقد يقال إن شغف الكاتب بالطبيعة ، ربما أوقعه في عواطف مسرفة ، واضطره إلى تكلف المواقف التي وقفها غيره ، عند كثير من المعالم الطبيعية المشهورة ، وهذا شرٌّ ما يعترى المقالة التي تصف الرحلة<sup>(٢)</sup> ، وذلك ، غير أن جبري لم يكن يصدر في وصفه لجمال الطبيعة ، وأثرها في نفسه إلا عن شعور صادق ، يدل عليه سهولة الأسلوب ، وبعده عن التكلف .

وإذا كان المرء لا ينسى وطنه ، وإن بعد عنه ، ونأت دياره ، فإن جبري بلغ به الولع بوطنه درجة ، جعلته لا يمر بأرض شجيرة إلا شبهها بغوطة دمشق ، ولا بجبل أخضر إلا شبهه بجبل العلويين ، ولا بأرض جرداء إلا شبهها بالصحراء التي بين دمشق وبغداد أو بجزيرة العرب ، وما مر بنهر إلا تذكر بردى . . . وهلم جرا ، وهذه سمة بارزة كل البروز في رحلته ، تكاد تجدها في كل صفحة<sup>(٣)</sup>.

ولم يكن جبري يكتفي عند وصف الطبيعة ، بظواهرها ، بل كان يمزج مشاعره بها ، ويفرغ عليها من تأملاته ما يزيد سحراً ، استمع إليه يقول بعدما متع ناظره من موج البحر وخضرة الشجر : « هذه هي الحياة ، ابتسام وعبوس ، فرح وحزن ،

(١) أرض السحر ٨٥ ، بتصرف .

(٢) انظر : فن المقالة ١١٦ .

(٣) انظر : أرض السحر ، الصفحات : ٢٢ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٢٧ ، مثلاً .

عمل وكسل ، مالي ولهذه الفلسفة ، لقد طرحت هذه الكلمات على الورق ، ثم رفعت رأسي وأخذت أتمتع من الموج وموسيقاه ، هذه هي الحياة في مذهبي »<sup>(١)</sup>.

وفي موضع آخر يخاطب نفسه بلغة هامية ، قائلاً : « فلتتمتع العين من هذه الطبيعة ، ومن هذا الجمال ، فإن الدنيا كلها أحلام »<sup>(٢)</sup>.

إن قيمة وصف الرحلات ، تأتي من أنها تصور تأثير الكاتب بعالم جديد لم يألفه ، والانطباعات التي تركها في نفسه<sup>(٣)</sup> ، ولذلك كان اهتمام جبيري منصباً على وصف طبيعة هذا العالم الجديد الذي يراه أول مرة ، ثم وصف الجامعات ومعالم الحضارة .

لقد بهره حسن اختيار مواضع الجامعات ، وبعدها عن المدن ، وأظهر إعجابه ببناؤها وطلابها ومدرسيها<sup>(٤)</sup> ، بل إنه خصص فصلاً كاملاً في رحلته الثانية ، وصف فيه حياة طلاب الجامعات ، سماه ( الدنيا الضاحكة )<sup>(٥)</sup> ، ولم ينس أن يعترض على ذلك النحو من الحرية ، الذي رآه عند أولئك الطلاب والطالبات<sup>(٦)</sup>.

وقد يسهب في بعض المواضع ، واصفاً بعض ما يحدث في تلك الجامعات ، كفعله عند وصف مباراة رياضية ، حيث استغرق هذا الوصف قرابة أربع صفحات<sup>(٧)</sup>.

إن جبيري لم يكن يتوخى في رحلته الإحصاءات أو الدراسات ، أو الكلام على تاريخ البلاد وتقويمها ، وإنما توخى تدوين انفعالاته ليس غير<sup>(٨)</sup> ، وهو يفضل أن يقتصر كتاب الرحلات على ذكر خواطرم وهو أجسهم ، دون النقل من الكتب ، لأنه يريد أن يرى روح الكاتب وشعوره في خلال رحلته<sup>(٩)</sup> .

(١) المصدر السابق ٨٦ .

(٢) أرض السحر ٢٦٥ .

(٣) انظر : فن المقالة ١١٥ .

(٤) انظر : أرض السحر ١٤٦ و ١٧٠ .

(٥) انظر : المصدر السابق ٢٥١ .

(٦) انظر : المصدر السابق ٢٥٢ .

(٧) انظر : أرض السحر ١٨٢ .

(٨) انظر : أنا والنثر ٨٩ " بتصرف " .

(٩) انظر : أحمد فارس الشدياق ١٧٥ .

ومع أنه يرى أن وصف أخلاق الأمم وطبائعها ، في أدب الرحلة لم يعد له حاجة<sup>(١)</sup> ، عمد في رحلته هذه إلى وصف كثير من طبائع الأمريكان وخصائص حياتهم ، فكان يدون في كل يوم ، ما يستوحيه من مشاهد وانطباعات<sup>(٢)</sup> .

ومما أعجبه من أخلاقهم ، حبهم للعمل وتفانيهم فيه<sup>(٣)</sup> ، وكأنه حين ألح على هذا المعنى ، يعرض بالعرب ، ويدعوهم إلى التأسي بالأمريكان في هذا المجال .

كما وصف عيشتهم الناعمة ، وتوقع عراقب وخيمة لها ؛ لأن الناس يصعب عليهم الاخشيستان بعد الرفاهية<sup>(٤)</sup> . كما لفت انتباهه أن « الآلة في أمريكا غلبت على كل شيء ، . . . على نواحي الحياة بحذاقيها ، حتى أثرت هذه الآلة على التفكير نفسه »<sup>(٥)</sup> .

وهو - في انبهاره بتلك الحضارة ، وشغفه بوصف مظاهرها - كغيره من كتاب الرحلة في هذا العصر ، الذين أصبحوا يحفلون أكثر شيء بوصفها ، وذكر عظمتها ، ومايسايرها من تطور ثقافي وفكري وتقني<sup>(٦)</sup> .

غير أنه لم يكن يصف الحضارة وصفا مجردا ، بل كان يعمد إلى بث خواطره ، وإبداء آرائه في كثير مما يرى ، فيقول مثلا : « لايقعن في خلد أحد أن المعامل وحدها إنما هي عنوان عظمة الأمة . . . فإن أمريكا . . . بلغت هذه العظمة بفضل الروح التي خلقت هذه المعامل »<sup>(٧)</sup> ، ثم يستطرد قائلا : « خلق هذه الأمور المادية ، يحتاج إلى قوة معنوية ، في أول الأمر ، وهذه القوة المعنوية نجدها في ميراثنا الفكري الذي خلفه لنا العرب »<sup>(٨)</sup> ، هكذا نجد أنه يعيش مع هموم أمته ، ويبحث عن مجالات رقيها ، وأسباب رفعتها ، ولم يلهه مارآه في أمريكا عن ذلك الهدف النبيل .

- 
- (١) انظر : المصدر السابق ١٨٠ .
  - (٢) انظر : مقدمة أرض السحر ، ص ٥ .
  - (٣) انظر : أرض السحر ٢٠٠ .
  - (٤) انظر : المصدر السابق ٢٠١ .
  - (٥) المصدر السابق ١٩٩ .
  - (٦) انظر : مقال ( دعوة لدراسة أدب الرحلات في تراثنا العربي ) ٩٤ .
  - (٧) أرض السحر ٢٦٨ " بتصرف " .
  - (٨) المصدر السابق ٢٦٩ .

إن جبري لم يقف موقف المستلب ، الضعيف الشخصية ، تجاه مارآه هناك - كما وقع لكثير من الذين كتبوا عن الغرب ، وعادوا ممسوخى الهوية - فهو يصف مظاهر الحضارة ، ويذكر بعض صفات الأمريكان ، ويُعجب ببعض أساليب التربية عندهم<sup>(١)</sup> ، وبعض أخلاقهم<sup>(٢)</sup> ، ولكنه مع كل ذلك ، لم يكن سلبي النظر ، يفض الطرف عن مساوى تلك الحضارة ، فهو ينتقد بعض أساليبهم في التعليم<sup>(٣)</sup> ، ويشير إلى افتقارهم إلى الترابط الاجتماعي<sup>(٤)</sup> ، ويصور بعض ملامح الانحلال الخلقي<sup>(٥)</sup> ، والإفراط في منح الحرية للنساء ، ويبيدي شكه من أن تبقى هذه الحرية بريئة من المزالق<sup>(٦)</sup> .

ولاريب في أن كتب الرحلات ، تعد مصدرا لوصف الثقافات الإنسانية<sup>(٧)</sup> ، وعبقرية الرحالة في هذا العصر تظهر بقدر مايقدم إلى الناس من كشف لطبائع الشعوب ، وتصوير لخصائص الأمم<sup>(٨)</sup> ، وفي رحلة جبري ، كثير من المظاهر التي سجّلها بعين ثأحة ، مما يتعلق بطبيعة الشعب الأمريكي .

فهو يذكر - مثلا - أن المرء عندهم ، لايفض من قدره أن يخدم مجتمعه في أي مجال<sup>(٩)</sup> ، كما يبدي إعجابه بحبهم للضحك واللهو ، وابتعادهم عن الحزن ، ويقول معلقا : « فكان الناس في أمريكا لايعرفون الموت . . . فلم يخلقوا للتفكير في الحزن والكآبة في كل ساعة »<sup>(١٠)</sup> ، ومما لحظه أن الروح الأمريكية لاتقبل الجد حتى في أشد الأمور التي تستوجب الوقار ، وهي الجنديّة<sup>(١١)</sup> .

- 
- (١) انظر : أرض السحر ١٢٣ و ١٣٦ .
  - (٢) انظر : المصدر السابق ٥٢ و ٧٣ .
  - (٣) انظر : المصدر السابق ٦٩ .
  - (٤) انظر : أرض السحر ١٩١ .
  - (٥) انظر : المصدر السابق ٩٢ و ٢٠٤ .
  - (٦) انظر : المصدر السابق ٢٦٢ .
  - (٧) انظر : مقال ( دعوة لدراسة أدب الرحلات في تراثنا العربي ) ٩٠ .
  - (٨) انظر : فصول في اللغة والأدب ١٣٠ .
  - (٩) انظر : أرض السحر ٦٣ .
  - (١٠) المصدر السابق ١٩ .
  - (١١) انظر : المصدر السابق ٩٣ .

ولكنه لم يتغلغل في بحث الأسباب ، التي جعلت هذا الشعب يتصرف بتلك الصفات ، ولم يعمد إلى الموازنة بين صفاتهم تلك وبعض صفات العرب ، وإن كان كثيرا ما يعرض ببعض العيوب الاجتماعية عندنا .

ومما اهتم جبري به ، الاختلاط بالأمريكان ، والتعرف إليهم عن كثب ، فكان يقبل دعواتهم ، ويجتمع بهم ، ويصطحبهم في رحلات بالسيارة بين المدن<sup>(١)</sup> ، وقد يخص أسرة من الأسر بالوصف ، فيذكر حالتها ، وعدد أبنائها ، وأوضاعهم الاجتماعية<sup>(٢)</sup> ، كما حرص على الالتقاء بالأمريكان ذوي الأصول العربية<sup>(٣)</sup> . كذلك عني بوصف سيطرة اليهود على الرأي العام الأمريكي ، وخطرهم ، وسعيهم لإحقاق باطلهم<sup>(٤)</sup> ، وتحدث عن تفاني بعضهم في خدمة فكرة « إسرائيل » حتى من بعض الشباب ، وأكد على أنهم يدرسون العربية وشؤون الشرق الأوسط ، لغايات سياسية ، وألمه في الوقت نفسه أن العرب لا يبذلون شيئا يذكر مقابل ذلك<sup>(٥)</sup> . أما المرأة في رحلته هذه ، فقد كان أكثر حديثه عنها عرضا ، وأكثر ما لفت انتباهه فيها ، انفلاتها ، وخروجها على طبيعتها ، وبين شكه في بقائها محصنة وهي على تلك الحال<sup>(٦)</sup> .

ولم يعجبه كذلك انهماكها في الأعمال ، ومزاحمتها الرجال ، وقال : « إن المرأة الأمريكية اشتتت في هذه السبيل اشتطاطا قد يؤدي في عاقبة الأمر إلى شيء من التنازع بينها وبين الرجل »<sup>(٧)</sup> . وفي مقابل ذلك وصف كثيرا من طبائع النساء هناك ، وأساليب الزواج والخطبة عند بعضهم<sup>(٨)</sup> ، وخص الفتاة الأمريكية بمزيد وصف ، فنعتها بأنها صريحة وغير

- 
- (١) انظر : أرض السحر ١٧٣ .
  - (٢) انظر : المصدر السابق ١٥٤ .
  - (٣) انظر : المصدر السابق ١٢٠ .
  - (٤) انظر : أرض السحر ٤٧ و ٢٠٧ .
  - (٥) انظر : المصدر السابق ١٦٦ ، وانظر كذلك فصل ( الحية والأرنب ) ص ٢٢٦ .
  - (٦) انظر : المصدر السابق ٢٦٢ .
  - (٧) أرض السحر ٢١٧ .
  - (٨) انظر : المصدر السابق ١٨٩ .

معقدة<sup>(١)</sup>، ولم يُفتَ الفرصة حين رأى بعض المرضات ، فوصفهن ، وذكر أنسهن ، وتعجب من فرط حسنهن<sup>(٢)</sup>.

لقد كانت رحلة جبري هذه ، في وقت اشتد فيه الصراع في فلسطين ، واضطربت كثير من أحوال الدول التي تسعى للاستقلال ، فكان من الطبيعي أن يتأثر الفكر السياسي في أدب الرحلة عنده ، بنضال الأمم المضطهدة ضد مستعمرها ، وبخاصة في فلسطين ، وبعض البلدان العربية الأخرى<sup>(٣)</sup>.

سافر جبري إلى أمريكا ، وقد حمل في قلبه الأسى البالغ ، بسبب تسلط اليهود، ومشايعة الغرب لهم ، ولذلك لم يجامل ولم يُدار ، حين زار هيئة الأمم المتحدة ، فقال حين رأى الذين يختلفون إليها : إنه « لم يشعر أن على وجه واحد منهم أثر الاقتناع بأن هذه المؤسسة قادرة على شيء »<sup>(٤)</sup>.

وسخر سخرية مرة من بعض مندوبي العرب ، في تلك المنظمة ، وأشار إلى عدم مقدرتهم على امتلاك ناصية الكلام<sup>(٥)</sup> ، وتغلب المندوب اليهودي عليهم<sup>(٦)</sup> ، وأظهر استيائه من هذا الموقف ، وسماه رواية هزلية ، كما توقع من مندوبي العرب أكثر من ذلك<sup>(٧)</sup>.

كما أن القارئ لرحلته ، يلمس روحاً إسلامية غيوراً على الإسلام ، تدافع عنه بحماسة ، وتحتاج بونه ، فمن ذلك أن رجلاً قال له إن صلواتكم تعطل الأعمال ، فشرع يشرح له ويبين خطأ قوله ، وأطال في ذلك<sup>(٨)</sup> ، ومن شواهد هذه الروح أيضاً إسهابه في رد الشبهة ، التي تزعم أن العلم لا يتصل بالإسلام<sup>(٩)</sup>.

(١) انظر : أرض السحر ١٩٠ .

(٢) انظر : المصدر السابق ٨٠ .

(٣) للتوسع في بسط هذه الفكرة ، انظر : الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة الحديثة ص ٣١٩ ، د . تازك سابايارد ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٩ م .

(٤) أرض السحر ٢٠٦ .

(٥) انظر : المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٦) انظر : المصدر السابق ٢٠٨ .

(٧) انظر : أرض السحر ٢٠٩ .

(٨) انظر : المصدر السابق ١٤٢ .

(٩) انظر : المصدر السابق ٢١٩ .

ومن معاني ذلك ، أن جبيري كان يريد من كِتَابِ رحلته هذا أن يضم بعض آرائه ، ومذاهبه في الحياة ، وإن كان يشتمط أحيانا في بعض الفِكر ، متأثرا بتيارات قومية أو علمانية<sup>(١)</sup> .

ومما اهتم به جبيري ، الالتفات إلى واقع العرب ، ونقد أوضاعهم وعاداتهم ، وذلك ضرب من النقد الذاتي ، لم يصدّه عنه كونه واحدا منهم ، بل كان صريحا كل الصراحة في نقد قومه ، وذكر بعض معائبهم ، قاصدا من ذلك التنبيه إلى ضرورة أطراحها ، والأخذ بأسباب الحضارة والتقدم في كل مجال .  
فمما أشار إليه ، عادة الجلوس في المقاهي ، لقتل الوقت ، بينما يحرص الأمريكيون على وقتهم كل الحرص<sup>(٢)</sup> .

كما ألح إلى بعض العادات الشرقية في الزواج ، ومايقع من مغالاة وكلف بالمظاهر<sup>(٣)</sup> ، وانتقد كذلك كثرة الكلام وقلة العمل<sup>(٤)</sup> ، وآله أيضا أن البعثات والسفارات المسلمة مقصرة تقصيرا كبيرا ، فيما يتعلق بشرح الإسلام وبيانه للناس في أمريكا<sup>(٥)</sup> .

ومما تميّز به أسلوبه في كتابة الرحلة ، الميل إلى الطرافة والظرف « من أجل إضفاء الحيوية ، وإبعاد الملل ، وإثارة التشويق لدى القراء »<sup>(٦)</sup> ، وهو أسلوب يعدّه بعض النقاد من مقومات كتب الرحلات<sup>(٧)</sup> ، وقد كان هو نفسه يرى أن معالجة الموضوعات الجليلة ، بأساليب مشتملة على بعض الهزل ، تزيد من قوة التنبيه والتهذيب<sup>(٨)</sup> ، ولذلك كان لا يرضنّ على قارئه بسرد بعض الطرائف التي لقيها هناك<sup>(٩)</sup> ، بل إنه خصص فصلا لرواية بعض الطرف ، في رحلته الثانية ، وسماه (غرائب)<sup>(١٠)</sup> .

(١) انظر : المصدر السابق ١١٤ .

(٢) انظر : المصدر السابق ١٩٥ .

(٣) انظر : أرض السحر ٥٢ .

(٤) انظر المصدر السابق ٤٢ .

(٥) انظر : المصدر السابق ١٤٣ .

(٦) أدب الرحلة ١٢٩ .

(٧) انظر : في المختبر ٢٠٢ ، مارون عبود ، دار الثقافة ، بيروت ، ط الثانية ١٩٦٤ م .

(٨) انظر : بين البحر والصحراء ٦٣ .

(٩) انظر : أرض السحر ، الصفحات : ٤٣ و ١٩٨ و ٢١٦ مثلا .

(١٠) انظر : المصدر السابق ٢٥٧ .

ومن طرائفه التي أودعها هذا الكتاب ، قوله لما دخل معرضاً للزهور : « أهذه هي الجنة ؟ ٠٠٠ لقد كنت أرى فيها كل شيء ، ما خلا أمراً واحداً لا أثر له ، وهو الحور العين ، فما كانت تقع العين إلا على عجائز ، تجر كل واحدة منهن نفسها جراً ٠٠٠ »<sup>(١)</sup>.

كذلك روى أن سائحاً يهودياً نسي دراهمه عند صاحب مقصف ، فصاح به وأعطاه إياها ، ثم قال : « وهذه على ما أظن أول مرة ينسى فيها يهودي دراهمه »<sup>(٢)</sup> ، وهو تعليق بلغ الغاية في اللطف ، ويشبهه قوله - لما دخل مطعماً ومعه شيخ معمم ، لفت نظر الفتيات - : « ترك بعضهن الأكل ، وأخذن يصعدن النظر فيه ويصوبن ، فقد أتعبت هذه العمامة صاحبها ، وأتعبتنا ، وأتعبت الناس معا »<sup>(٣)</sup>.

ويقتزن بظرفه هذا ، سخرية مريرة ، وبخاصة حين يصف بعض الأشخاص ، فيأتي بالعجيب المدهش من الألفاظ الموحية ، المتمكنة في مواضعها ، كقوله في وصف شيخ يمني : « قصير القامة ، نحيف البنية ، قوي المعدة » ، فانظر إلى جمال قوله : قوي المعدة ، وتأمل ما ينطوي عليه هذا الوصف من سخرية عميقة ، وقس ذلك بقوله في وصف آخر : « إنه مثل البرميل من حيث رشاقة القوام »<sup>(٤)</sup> ، ولو أنه اكتفى بتشبيهه بالبرميل ، لما أثر في القارئ كل هذا التأثير ، ولكن جملة « من حيث رشاقة القوام » هي التي أثرت المعنى ومكّنت له .

وقد يسهب في وصف موقف يجتمع فيه عدة أشخاص ، كوصفه بعض خطباء ميدان ( برشين ) في إحدى الولايات الأمريكية ، وهو وصف اجتمع فيه الظرف ، والسخرية ، والتعريض ، في أسلوب واضح لاغرابة فيه ، ولا تكلف ، وذلك حيث يقول : « شيخوخات متهدمة ، تعلق وجوه أصحابها صفرة مثل صفرة الموت ، كأن أجسامهم هياكل من عظم لالحم فيها ولادم ٠٠٠ بينهم عبد أسود مشفره نصفه ، أو عبدة كأنها سعف نخل تغني له ، ٠٠٠ هذا أنفه بارز يكاد يتحرك من الغضب ، وهذا عينه جاحظة ، وهذا ينظر إليك كأنه أبله ، يكلمك وأنت لاتعرفه ٠٠٠ يرفع حاجبا

(١) انظر : المصدر السابق ٢٦٤ .

(٢) أرض السحر ١٢٩ .

(٣) المصدر السابق ١٠٧ .

(٤) أرض السحر ١٥٩ .

ويخفض حاجبا ٠٠٠ ثم يهجم على خصمه الذي يناظره في الحلقة ، فتظن أنه يريد أن يأكله»<sup>(١)</sup>.

وهذا أسلوب متماسك ، ينبض بالحياة ، نولغة واضحة ، سليمة من الخلل والعيب ، وهو الغالب على كتابه هذا ، غير أنك تجد لديه بعض الجمل المضطربة ، كقوله : « ثم جيء بالطعام ، إن في القصر طاهيا من حلب ، لقد سنمنا الأكل الأمريكي »<sup>(٢)</sup> ، وقوله : « ما أفن هذا النهار ! لقد طفنا بالجامعة ، ماذا أقول ؟ إنها مدينة قائمة بنفسها »<sup>(٣)</sup> ، وبين مافي هذه الجمل من خلل في التنسيق ، وتفكك واضطراب .

وقد يفصل في بعض المواضع تفصيلات لاحاجة لها<sup>(٤)</sup> ، أو يأتي بجملة معترضة طويلة - استطراداً - لدفع السامة عن القارئ ، على طريقة الجاحظ<sup>(٥)</sup> ، وبعض جملة الاعتراضية تكون كالشجا في الطلق ؛ لعدم إحسانه اختيار موضعها<sup>(٦)</sup> .

ومما كلف به ، الاستطراد ، والخروج إلى ذكر أحداث لاتمت للرحلة إلا بسبب وإه<sup>(٧)</sup> ، وربما تحدث عن بعض الأساطير المتعلقة بما يراه من آثار<sup>(٨)</sup> ، وقد يشجيه أمر ، فيفرد له جزءاً كبيراً ، كالحديث عن مصرع العربية في أمريكا ، ويعني بذلك نوبان العرب في المجتمع الأمريكي<sup>(٩)</sup> ، ولاشك في أنه ثقف هذا الأسلوب عن الجاحظ ، الذي يعد رأس مدرسة الاستطراد في الأدب العربي .

ومن المأخذ على رحلته ، الاهتمام بذكر بعض الدقائق ، التي لاتقدم ولاتؤخر ، كذكر بعض الأحاديث التي تجري بينه وبين بعض من قابلهم<sup>(١٠)</sup> ، أو إثبات نص

(١) المصدر السابق ١٠٣ .

(٢) المصدر السابق ٤٩ .

(٣) أرض السحر ٣٢ .

(٤) انظر : المصدر السابق ٢٦٧ .

(٥) انظر : المصدر السابق ٢٨ .

(٦) انظر : أرض السحر ٣٠ .

(٧) انظر : المصدر السابق ٥٢ .

(٨) انظر المصدر السابق ١٧٦ و ١٧٨ .

(٩) انظر : أرض السحر ١٥٧ .

(١٠) انظر : المصدر السابق ١٠ و ١٣ .

رسالة كتبها له شاب يهودي ، وليس فيها شيء يستحق التقييد<sup>(١)</sup> .  
ومما يحمد لجبري في كتابه هذا ، تأنيبه في إصدار الأحكام ، وعدم التعجل  
فيها ، كقوله : « هذه أمور لا أستطيع بيان الرأي فيها ؛ لأنها تحتاج إلى تعمق في  
الدراسة »<sup>(٢)</sup> .

أما نهاية الرحلة ، فقد اتبع فيها نهجين : ففي رحلته الأولى جعلها تقليدية ،  
يحكمها عامل الزمن ، ولم يكن موفقا فيها ، من حيث إشعار القارئ بانتهائها ، أما  
الرحلة الأخرى ، فجعل النهاية في فصل عنوانه ( خاتمة المطاف )<sup>(٣)</sup> ، وفيه حث بلده  
سورية على الأخذ بأسباب الحضارة ، والاستفادة من التراث الفكري بخاصة لأنه هو  
الأساس ، ومنه المنطلق .

هذا هو أدب الرحلة عند جبري ، فيه تميّزٌ من بعض الجوانب ، وبخاصة في  
الأسلوب واللغة ، وتقليدٌ واتباعٌ من جوانب أخرى كالبدائية ، وسرد الوقائع .  
وقد بالغ بعض الدارسين في الثناء على كتابه هذا ( أرض السحر ) مبالغة  
جاوزت القصد ، حين زعم أن « الكتاب كله جدير بالدرس ، خليق بالبحث »<sup>(٤)</sup> ، وأن  
فصل ( خاتمة المطاف ) « تضمن إشراقات نادرة المثال في أدبنا العربي »<sup>(٥)</sup> .  
وخير ما وصف به الكتاب أنه « عالم زاخر بالأراء ، غني بالأفكار ، مليء  
بالنظرات والمشاهدات ، مترع بالوصف الدقيق ، هائج مانح بالعاطفة الدافقة ، زافر  
بالحسرات والأناة ، ضاحك بالفكاهة »<sup>(٦)</sup> .

(١) انظر : المصدر السابق ٩٨ .

(٢) أرض السحر ٢٥٣ .

(٣) انظر : المصدر السابق ٢٦٧ .

(٤) فصول في اللغة والأدب ١٤٦ .

(٥) المرجع السابق ١٢٨ .

(٦) المرجع السابق ١٤١ " بتصرف يسير " .

### ٣ - أسلوبه :

يُعرف الأسلوب بأنه « طريقة الكتابة ، أو طريقة الإنشاء ، أو طريقة اختيار الألفاظ ، وتأليفها للتعبير بها عن المعاني ، قصد الإيضاح والتأثير »<sup>(١)</sup> .  
أي أن الأسلوب هو في حقيقته : « طريقة التعبير »<sup>(٢)</sup> ، ولما كان هو « وسيلة التعبير عن المعاني بواسطة الألفاظ ، فلا يكون المعنى وحده ، ولا اللفظ وحده ، وإنما هو مزيج من عناصر مختلفة هي :

الأفكار والصور والعواطف ، ثم الألفاظ المركبة والمحسنات المتعددة »<sup>(٣)</sup> .  
ولاشك في أن الأسلوب ركن مهم من أركان الأدب نثره وشعره ، فهو الذي يميز كاتباً عن آخر ، إذ إن لكل واحد من الكتاب معجماً يحوي الألفاظ التي يرددها ، والجمل التي يكثر منها ، والتراكيب التي يؤثرها ، ويتضح من خلاله المؤثرات في تكوينه ، ونمط تفكيره .

من أجل ذلك كان الاهتمام به ضرورة ، من قبل المبدع ، كيما يعرض أدبه بأسلوب مقبول مرضي ، ومن قبل المتلقي الذي يميل إلى لون من الأسلوب ، ويرغب عن آخر .

وعلى ذلك ، فإن للأسلوب دوراً في تحبيب الأدب للناس ، مع أن جبيري نفسه يرى أن حالة القارئ النفسية هي التي تحبب له نوعاً من الأدب ، وحين تزول تلك الحالة أو العقدة التي يشعر بها ، فإنه يختلف نظره إلى ذلك الأدب<sup>(٤)</sup> ، وهذا كلام لا ريب فيه ، ولكن اجتماع الأسلوب البديع مع الحالة الملائمة للمتلقي يزيد الأدب جمالا .

وكلام جبيري ذلك لا يفهم منه إهدار قيمة الأسلوب ، ولكنه ذهب فيه إلى أن الأسلوب - أحيانا - يتأخر مفسحاً المجال للحالة النفسية للمتلقي .

(١) الأسلوب ٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) العمل الأدبي بين الإبداع والأداء ١٦١ .

(٤) انظر : مقدمته لكتاب ( رباعيات الخيام ) ص ٩ ، ترجمة نويل عبد الأحد ، منشورات مطبعة الحياة ،

دمشق ١٩٥٨ م .

ولقد عرّف هو الأسلوب بأنه « الطابع الخاص الذي يطبع به الكاتب كتابته ، والشاعر شعره ، والقاص قصته ، الأسلوب هو القالب الذي يصب فيه كل واحد منا فكره وعاطفته »<sup>(١)</sup> ، أو « هو المذهب الذي يذهب كل واحد منا في التأليف بين ألفاظه ، فالأسلوب لا يراد به اللفظ وحده ، وإنما يراد به التأليف بين الألفاظ »<sup>(٢)</sup> .

ولقد كان جبيري يهتم الاهتمام كله بالأسلوب ، ويرى أن الاهتمام بالمعنى وحده غير كاف<sup>(٣)</sup> ، ومن أجل هذا كان يشدد في نقده للأساليب المتدنية في المقالة والقصة وغيرهما<sup>(٤)</sup> ، بل كان يصرّح بأنه قلّما يلتفت إلى الموضوع ، وإنما كان همه الفن قبل كل شيء وروح الكاتب<sup>(٥)</sup> .

ونظراً لإيمانه بهذا المبدأ ، كان يرى « ألاّ يكتب الكاتب إلا ما يشعر به ؛ لأن كتابته حينئذ تصدر عن الطبع والروح »<sup>(٦)</sup> ، فيرقى بذلك أسلوبه ، ويصفو فنه ، كما يرى أن من شروط كون المرء كاتباً سهولة لغته<sup>(٧)</sup> ، وفي نظره أن البلاغة كل البلاغة ، في السهولة والبساطة ، لافي التحذلق والتقعير<sup>(٨)</sup> ، و« سهولة الكلام هي التي تخلد صاحبها »<sup>(٩)</sup> .

وبعد : فتلك آراؤه في الأسلوب ، وتعريفه له ، فكيف كان أسلوبه هو ؟  
وماسماته ؟

يقول جبيري متحدثاً عن أسلوبه : « إنه أسلوب مطبوع بطابع الموضوع والسهولة والبساطة ، مع المحافظة على روح اللغة وعبقريتها »<sup>(١٠)</sup> ، ويحكم على نفسه بأنه انقاد إلى الطبع في كل كتاباته<sup>(١١)</sup> .

- (١) من مقالته (الأسلوب ص ٢١٨ ، مجلة المجمع ج ٤ ، مج ١٠ .
- (٢) من مقالته (الأسلوب هو الرجل) ص ٤٠٦ ، مجلة المجمع ج ٣ ، مج ٤١ .
- (٣) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ٢١٩ .
- (٤) انظر مثلاً : مقالته (انحدار الأنواق) ص ٩٥٩ ، مجلة الأزهر ، رمضان ١٣٧٩ هـ .
- (٥) انظر مقدمته لرواية (الأزاهير الحمر) ، لأميرة الحسني ، ص ١١ ، غير مؤرخة .
- (٦) المرجع السابق ١٢ .
- (٧) انظر : أنا والنثر ١٠٩ .
- (٨) انظر مقدمته لكتاب (أنا تول فرانس) ص ٧ .
- (٩) دراسة الأغاني ٣١٤ .
- (١٠) أنا والنثر ١٧٥ .
- (١١) انظر : المصدر السابق ١٨٧ .

كما لخص طريقته في الكتابة ، حين قال : « إنني أعنى بالتفتيش عن اللفظ ، الذي يصور الفكر أصدق تصوير ، وعن الجملة التي تقع في أذني موقع نغم من أنغام الموسيقى ، وعن التركيب البسيط الذي خلا من كل تزويق فيه كلفة . . ماعدا التزويق الذي جاء ابن الطبع وحده »<sup>(١)</sup>.

إذاً فهو يبحث عن جمال اللفظ ، ويعنى باختيار الجمل والتراكيب قبل كل شيء ، وينفر طبعه من التكلف والتزويق إلا إن جاء عفواً ، وكان يجتهد في تنقيح ما يكتب وتهذيبه ، تاركاً نفسه على سجيته ، غير أنه لم يكن ينقح إلا بعد الفراغ من الموضوع بزمن ، وقليل ما كان يعدل من ألفاظه وجمله<sup>(٢)</sup>.

ثم إنه صاحب أسلوب منطقي في أغلب مؤلفاته ، يظهر عليه حبه للتنسيق والتنظيم وترتيب الفكر . وقد أشار إلى ذلك وقال : إن أدبنا يفتقد الفكر الرياضي ، يقصد بذلك التسلسل المنطقي ، أو وحدة الموضوع<sup>(٣)</sup> ، يقول عن نفسه : « إنني مولع بالتحليل . . . مولع بتقسيم الفكرة أقساماً ، وبتوضيح كل قسم على حدة »<sup>(٤)</sup> ، « كنت أتقيد بالفكر الرياضي كل التقيد ، وأعني بذلك أنني كنت أحرص على وحدة الموضوع »<sup>(٥)</sup>.

ولقد استفاد هذه السهولة في الأسلوب ، من عدة مصادر :

الأول : فكرة التحرر الأدبي التي عمت الكتاب ، فأثروا النثر المرسل ، البعيد عن التكلف ، وإن بقيت بعض آثار القديم عن بعضهم<sup>(٦)</sup>.

الثاني : تمرسه بالكتابة في الصحافة ، التي تجعل كتابها يجنحون إلى السهولة ، ويميلون إلى الرقة<sup>(٧)</sup>.

الثالث : قراءته في الأدب الغربي بعامة ، والفرنسي بخاصة<sup>(٨)</sup>.

(١) المصدر السابق ٢٤ و ٢٥ .

(٢) انظر : أنا والنثر ١٧٤ .

(٣) انظر : المصدر السابق ١١٦ .

(٤) أنا والنثر ٨٢ .

(٥) المصدر السابق ١١٦ .

(٦) انظر : البارودي رائد الشعر الحديث ١٦٦ ، د . شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط الرابعة ١٩٨١ م .

(٧) انظر : صناع الأدب ١٤٦ .

(٨) أنا والنثر ٢٥ و ١٤٥ .

**والمصدر الرابع:** قراءته الواسعة في كتب التراث التي تنحو منحى الترسل والسهولة ، والبعد عن التكلف ، مثل كتب الجاحظ والأصبهاني .

### - السمات العامة لأسلوبه :

لكل كاتب نمط من الكلام يتميز به ، وطابع خاص في تفكيره وتعبيره وتصويره ، ولذلك قيل إن الأسلوب هو الأديب<sup>(١)</sup> ، أي أن اختلاف نفس الكاتب واتسامها بسمات خاصة ، ينطبع على ما ينتجه من أدب ، ومن أجل ذلك كانت دراسة الأسلوب ضرباً من تمييز الكتاب بعضهم عن بعض ؛ لأنه لا يتفق كاتبان فيه حذو القذة بالقذة ، ويمكن إجمال سمات أسلوب جبري على النحو التالي :

#### ١ - التأثر بأساليب القدماء :

يقول جبري : « كنت ألوّن في دفتر خاص ما أمر به من جمل أستحسنها ، أو من تراكيب أستطرفها ، فكنت بعد ذلك أستعمل في كتاباتي ما كنت بوّنته »<sup>(٢)</sup> ، فلا عجب إذاً أن يجد القارئ عنده جملاً منقولة ، يصبها في قوالب محفوظة ، مثل الجمل والتعبيرات التالية :

- « يأخذ بعضها برقاب بعض »<sup>(٣)</sup> .
- « اشرب النفاق بالمدينة »<sup>(٤)</sup> .
- « هل غادر الجاحظ من متردم »<sup>(٥)</sup> .
- « بعد أن همعت شأبيب الثورة الفرنسية ولعت عوارضها »<sup>(٦)</sup> .
- « افتتح علينا أبواب المظالم ، واحتلب فينا ضرعي الدنانير والدراهم . . . . . وحتى أحر البلاد ، بل أحر العباد ، وحتى شوق إلى الآخرة أهل الدنيا »<sup>(٧)</sup> ، وقد شعر جبري بأن هذه الجمل الأخيرة منقولة نقلاً من التراث ، فقال : « إنني لأشعر بأن

(١) انظر : الأسلوب ١٢١ .

(٢) المصدر السابق ١٨ .

(٣) انظرها مثلاً في : الجاحظ معلم العقل والأدب ٢٢٧ .

(٤) العناصر النفسية في سياسة العرب ١٦ .

(٥) بين البحر والصحراء ٥٦ .

(٦) شيء عن أناتول فرانس ، مجلة المجمع ، ص ١٥٥ ، ج ٤ ، مج ٧ .

(٧) أنا والنثر ١٠٥ .

هذا الكلام ليس من نمط كلامي ٠٠٠ وأظن أنني استعرتة ٠٠٠ وكأنه من كلام القرن الرابع ، وعليه روح الخوارزمي أو البديع «<sup>(١)</sup>.

وأقر في موضع آخر ، بأنه لم ينج - في بعض مقالاته - من تأثير بلغاء الكتاب ، فنقل عنهم عدة تعبيرات ، مثل : مزقتها كل ممزق - تستنقذها من المكروه - جيئته وذهوبه<sup>(٢)</sup> . ومثلها أيضاً « فصلوا لي بردا ضايفي الحواشي ، سابغ الأذيال<sup>(٣)</sup> .

وعندي أن نقل تعبيرات القدماء لا يضير الكاتب في شيء ، ما بقي محتفظا بشخصيته الأدبية ، متميزا بأسلوبه ، بل إن استخدام تعبيراتهم وتراكيبهم مما يضيف على الكتابة روحا عذبة ، ويسبغ عليها جزالة وجلالا ، وبخاصة في هذا العصر الذي طغت فيه أساليب صحفية ركيكة ، لاتساوي في ميزان الأدب والفن شيئا .

## ٢ - البديع :

وهذه السمة متصلة بالتي قبلها ، وهي التائر بالقدماء ، ولكنها تختلف عنها ، من جهة أنها ظهرت عنده جلية في كتاباته الأولى ، ثم قلت حتى كادت تختفي ، وصار ينفر من أنواع البديع - حين يُفرط الكاتب فيها - ويرى أنها تخرج بالكلام عن الطبع إلى التصنع<sup>(٤)</sup>.

بل إنه ذهب إلى أن من فضائل الشدياق وأمثاله تزهيدهم الكتاب في السجع<sup>(٥)</sup>.

ومن الجمل التي جاءت عنده مصطبغة بصبغة بديعية ، ماجاء في حديثه عن مقامات الحريري<sup>(٦)</sup> ، حيث تجد فيه عدة جمل مسجوعة سجعا فيه شيء من التكلف<sup>(٧)</sup>.

(١) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) انظر : أنا والنثر ٥٠ .

(٣) من خطاب الشكر لأعضاء المجمع لما اختير عضوا فيه ، مجلة المجمع ، ج ١٢ ، ص ٦ .

(٤) انظر : أنا والنثر ١٢ و ٢٠ .

(٥) انظر : أحمد فارس الشدياق ١٠٥ .

(٦) الحريري ( ٤٤٦ - ٥١٦ هـ ) الأديب الكبير ، صاحب المقامات ، ومن كتبه درة الفواص ، وملحة الإعراب ، كان دميم الصورة غزير العلم . ( الأعلام ١٧٧/٥ ) .

(٧) انظر : بين البحر والصحراء ٦١ .

ومن كلامه الذي جمع سجعا وجناسا ، قوله : « فالوطن هو عرش المرء الذي فيه درج ، ومنه خرج ، حضنته أحشاؤه ، وأظلته أفيأؤه ، وغذاه هواؤه وماؤه ، وتربة الصبا كما قيل تغرس في القلب حرمة وحلاوة ، كما تغرس الولادة فيه رقة وحفاوة »<sup>(١)</sup>.

وتأمل الجملة التالية ، تجد أنها مغموسة غمسا في أساليب الأقدمين ، ففيها استعارات محفوظة ، زيادة على السجع ، وهي قوله : « لم يحوكوا الكلام على حسب الأمانى ، ولا خاطوا الألفاظ على قنود المعاني »<sup>(٢)</sup>.  
واستمع إلى قوله يصف إحدى مدن أمريكا ، في جمل حشاها بالطباق حشوا : « إنها مدينة جبارة ، فهي نظيفة قذرة ، موحشة مؤنسة ، عظيمة صغيرة ، هادئة صاخبة ، ساكنة متحركة »<sup>(٣)</sup> ، ولكن هذه الألفاظ المتطابقة ليست متكلفة ، بل إنها جلت المعنى الذي يريده جلاء تاماً .

### ٣- تقطيع الجمل :

يرى جبري أن أسلوب تقطيع الجمل ، يمهّد للقارئ ، ويعطي الكلام نصيبه من الراحة<sup>(٤)</sup> ، كما أنه يرى فيه « شيئا من الخفة والسرعة ، لانراه في العبارة المديدة التي يضم بعضها إلى بعض »<sup>(٥)</sup> ، وتعد هذه السمة من أظهر السمات في كتابته ، وانظر في جملة التالية :

- « أعطته صورا هامدة فأحيها ، وأرواحاً جامدة فحركها ، وألوانا كامدة فصفاها »<sup>(٦)</sup>.

- ومما قاله عن الزركلي : « خلقه الله شاعرا من أول حياته ، ففي قامته المديدة ، وفي عينيه الناطقتين ، وفي عنوبة حديثه إذا حدث ، وفي شدة غضبه إذا

- (١) من مقالة ( الحنين إلى الأوطان ) ص ٢٦٢ ، مجلة المجمع ، ج ٩ ، مج ١ .
- (٢) من مقالة ( الأسلوب ) ص ٢٢٢ ، مجلة المجمع ، ج ٤ ، مج ١٠ .
- (٣) أرض السحر ٢٠٣ .
- (٤) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ٢٥٨ .
- (٥) دراسة الأغاني ٣٢١ .
- (٦) من مقالته عن رواية ( سيد قريش ) ص ١٢٦ ، مجلة المجمع ، ج ٢ ، مج ١٠ .

- غضب ، وفي حلاوة رضاه إذا رضي ، وفي لطائف نكته إذا مزح «<sup>(١)</sup> .
- ومثله : « فإني أرجع إلى أحلام ذهبت ، وإلى صبا اضمحل ، وإلى شباب نوى »<sup>(٢)</sup> .
- وكذلك : « فيقبح أفعالهم ، ويذم آراءهم ، ويسفّه أحلامهم »<sup>(٣)</sup> .
- وأيضا : « صور رجالا خلقوا تاريخا ، وأدبا أنشأ أمة ، وفكرا غرس حرية »<sup>(٤)</sup> .
- وكذلك قوله : « فإني إذا أحببت الأدب أحببت كل الذين يحنون عليه ، وإذا نزعت إلى صوته نزعت إلى كل الذين يصونونه »<sup>(٥)</sup> .
- ولاشك في أن هذا التقطيع للجمل ، يساعد في إثراء الناحية الموسيقية في الكلام ، فتزيده تماسكا ، وتمنحه وضوحا ، وتعين القارئ على التلذذ بقراءته .
- ويتصل بتقطيع الجمل سمة أخرى ، هي :

#### ٤ - كثرة العطف والترسل :

- وهي سمة واضحة جدا ، وكثيرة ، ومن نماذجها مايلي :
- « والبحتري قد أنس بكل منظر من مناظر الطبيعة . . . وتملت أذنه قسمها من هديل حمامها ، وحفيف ورقها ، وضجيج بحرها ، وقصف رعدا ، وأخذ أنفه نصيبه من نرجسها ووردها وأسها وزعفرانها وأقحوانها ، وملأ شعره من ذهب شمسها ، وفضة مائها ، وركام تلجها ، واندفاق غيثها »<sup>(٦)</sup> .
- وقال عن الزركلي : « اجتمعت له أصالة الشعر ، ومحاسن النوق ، وحلاوة الصور ، وسهولة الألفاظ . . . لقد تجلت هذه الفضائل . . . في قصائده . . . التي فاضت محبة لدياره ، وشفقا بوطنه ، وثورة على المعتدين عليه ، وتحريرا على إخراجهم من ديارنا »<sup>(٧)</sup> .

(١) من مقدمة ديوان الزركلي ١٧ .  
(٢) العناصر النفسية في سياسة العرب ١١ .  
(٣) من مقدمته لكتاب ( الأدب العربي المعاصر في سورية ) ص ٧ .  
(٤) من مقدمته لكتاب ( أناطول فرانس ) ص ٥ .  
(٥) من مقالته ( في محراب الطبيعة ) ص ١٥٢٨ ، منجلة الكتاب ج ١٠ ، مج ٤ ، الوالعدة ١٣٦٦ هـ .  
(٦) من مقدمة ديوان الزركلي ١٧ .  
(٧) أنا والنثر ١٢ .

- ومثله : « كان سيدنا محمد يحب جباله المظلمة ، وقفاره الصاهرة ، وسماؤه العابسة ، وسواء عليه أرفّت الطبيعة تحت سماء مكة أم كمدت ، وسواء عليه أنضرت جبالها بالشجر أم جرّدت تجريداً . . . إنه أحب كآبتها وظلمتها ، وكمدتها ، وأذن في الناس بالحج ، فأتوها رجالاً وعلى كل ضامر من كل فج عميق »<sup>(١)</sup>.

وهذا وصف ترسل فيه جبلي ، وأطلق فيه لقلمه العنان ، فأسهب في الوصف ، وأمتع قارئه به ، ومثله في حسن الوصف ، والاسترسال الذي لا تكلف فيه ، قوله في وصف مكة :

« أرض هذا الوطن ، لم تضحك سماؤها ، ولا اخضلت شجرها ، ولا رفّت تعاشيبها ، ولا ماجت أنهارها ، وإنما نشأت - يعني محمداً صلى الله عليه وسلم - في صفاح جبال سود ، تدخل الكآبة على القلوب ، تحت سماء كامدة اللون ، بين صحارى صاهرة الشمس ، لاتأنس فيها العين بخضرة ربيع ، أو صفرة خريف ، ولا تنعم فيها الأذن بنوح عندليب ، أو بحفيف ورق ، أو بخير ماء »<sup>(٢)</sup>.

على أنني أرى أن كثرة المتعاطفات ، قد تكون عياً ، تُحوج إليها قلة المعنى ، ونضوب الذهن ، ولست أشك في إيحائها الموسيقي ، وتكثيفها للمعنى ، شريطة ألا تتجاوز القصد ، وأن توضع في مكانها الملائم .

#### ٥ - اللغة الشعرية :

وأعني بها ضروب البيان ، من تشبيه واستعارة ، ومجاز ، حيث كان يبيت في كلامه كثيراً منها ، مستعينا بها على إيضاح فكرة أو إثبات رأي .  
استمع إليه يصف قدوم الشتاء ، وصفاً فيه كثير من الخيال البديع : « وفي صبح من أصباح تشرين الثاني ، تهب ريح شديدة ، فتجرد هذا الخريف من قناعه المذهب ، فيلوح من وراء هذا القناع هيكل الشتاء النحيل ، فالأوراق التي كنا نعتقد

(١) دراسة الأغاني ٢٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

أنها لاتزال مخضرةً قد ماتت ، ولم تبق متشبثةً بأغصانها ، إلا بفضل ألياف دقيقة جداً»<sup>(١)</sup>.

وشببه بهذا المقطع قوله واصفاً بعض مظاهر الطبيعة في أمريكا : « الجو مثقل بالغيوم السود ، والهواء مع ذلك جاف ، فإننا في فضاء أجرد ، الجبال . . . ذاهبة في السماء ، رابعة بسوادها ، وعلى رؤوسها قطع من الثلج ، كأنها النمر في لونها الأبيض ، ولون الجبال الأسود»<sup>(٢)</sup> ، ومثله قوله : « تقلبتُ في الجبال والتلال ثلاث ساعات ، بين خريف أصفر ، يتناثر فيه الورق على الأرض بعد أن فارق الحياة ، وربيع أخضر يتعصن على الموت فلا يريد أن يموت»<sup>(٣)</sup> .  
ولأريب في أن هذا الأسلوب البياني ، يساعد على إيصال المعنى ، وينقل القارئ إلى تلك الطبيعة الموصوفة ، فكأنه يراها رأي العين .

ومما يتصل بذلك كثرة التشبيهات عنده ، وبعضها قديم مستفاد من التراث ، كقوله في وصف فتاة : « كأنها تفاحة تنوب في الرقة»<sup>(٤)</sup> ، وقوله في وصف الشعر الجيد : « كأنه بناء مبني لاخلل فيه»<sup>(٥)</sup> ، وبعضها مبتكر جديد ، مثل قوله يصف فتيات راقصات : « كأنهن طواويس بريشهن المنفوش»<sup>(٦)</sup> . وقوله : « ثم يمر القطار على واد ، فيلفه حتى يكون القطار في أوله وآخره على شكل حافر الفرس»<sup>(٧)</sup> ، وكذلك قوله : « وكأن كل مدينة من مدنه وشي منقوش على ثوب الوطن»<sup>(٨)</sup> .

وقد يشبه تشبيهات عصرية ، كقوله : « فكأنه أستاذ في كلية علوم يصف . . .»<sup>(٩)</sup> ، وقوله يصف تلك التشبيهات القديمة ، التي ماقتى بعض الكتاب

- (١) من مقال ( فن الشيخوخة ) ص ٧ ، مجلة الثقافة .
- (٢) أرض السحر ١٨٤ .
- (٣) المصدر السابق ١٢٧ .
- (٤) المصدر السابق ٥١ .
- (٥) الجاحظ معلم العقل والأدب ٢٥٢ .
- (٦) أرض السحر ١٨٥ .
- (٧) المصدر السابق ٩٩ .
- (٨) بين البحر والصحراء ٨٧ .
- (٩) أحمد فارس الشدياق ٢١١ .

يرددونها : « ومثلها في ذلك كمثل الأوراق المالية التي كثر تداول الأيدي لها حتى تهرأت »<sup>(١)</sup> ، وهذا تشبيه دقيق جدا .

وأنت راءٍ أن تشبيهاته في الغالب جديدة غير متكلفة ، تساعد على بيان المعاني ، من غير حشو ، ولا إثقال للجمل .

ولا يترك جبري لغته الشعرية ، حتى في بعض مقالاته النقدية ، كقوله مقرّظاً أحد الكتب : « هجم فيه الكاتب على خضم من المذاهب بشيء من الجرأة ، فبقي في أكثر هجمات على الساحل خوفاً من الفرق »<sup>(٢)</sup> .

ومثله قوله عن الجاحظ : « لقد سكر كل حياته بالكوان الأدب ، وبرتات ألفاظه ، وثمل كل عمره من لذة العلم »<sup>(٣)</sup> ، وتأمل جمال التعبير وسموه ، ودقته في الدلالة على المراد ، في قوله يصف أحد كتب التراجم : « كأن هذا التاريخ قد انتفض من مكنه ، ورمى إلينا برجال يعيشون بين ظهرانينا ، نجالسهم ويجالسوننا »<sup>(٤)</sup> ، وانظر إلى قوله في موضع آخر : « وإذا عجبنا من شيء فإنما نعجب من هذه الروح الطويلة ، التي أعانت الشدياق على تتبع أمثال هذه الأمور »<sup>(٥)</sup> واللفظ والجمال في هذه الجملة متجمع في قوله ( الروح الطويلة ) فإن وصف الروح بالطول بديع ، ودال على المراد .

ومن أمثلة لغته الشعرية ، التي تضمنت استعارات جيدة قوله في وصف أسلوب الجاحظ ولغته : « فهو أخذ بمخنق اللغة »<sup>(٦)</sup> . . . « فلسنا نعرف كاتباً لعب باللغة مقدار لعب الجاحظ »<sup>(٧)</sup> . « إن اللغة ألفت إلى الجاحظ طاعتها »<sup>(٨)</sup> .

وربما تراسلت الحواس عنده ، فتأتي الجمل نابضة بالحياة ، مشرقة المعاني ، كقوله : « فكأنما الأسماع قد مجت ما نردّد سنين طويلة ، وكأنما القلوب قد لفظت مانمضغ »<sup>(٩)</sup> .

(١) المصدر السابق ٢١٥ .

(٢) من تقريره لكتاب ( في دولة الأدب والبيان ) لعمر أبو النصر ، ص ١٢٢ ، مجلة المجمع ج ١-٢ ، ص ١٢ .

(٣) الجاحظ معلم العقل والأدب ٢٤٨ .

(٤) من مقدمته لكتاب ( الأدب العربي المعاصر في سورية ) ٧ .

(٥) أحمد فارس الشدياق ١٥٢ .

(٦) الجاحظ معلم العقل والأدب ٢٦٠ .

(٧) المصدر السابق ٢٦١ .

(٨) المصدر السابق ٢٦٢ .

(٩) الجاحظ معلم العقل والأدب ٢ .

وكثيرا ما يعرض جبيري الفكرة ، ثم يمثل لها بمثال حي ، مما يراه حوله في الطبيعة ، كقوله : « إذا شاء أحدنا أن يقطع مرحلة دفعة واحدة ، ووجد أن هذه المرحلة طويلة ، لزمه أن يجزئها أجزاءً ٠٠٠ من دون أن ينظر إلى الجزء الثاني قبل قطع الجزء الأول ، ومماثلنا في ذلك إلا كمثل الجبلي الذي يجرف الجليد في الجبال ، فإنه لا ينظر إلى رأس الجبل ، لأن التصعيد فيه يرهبه ، ولا ينظر إلى سفحه ، لأن الانحدار إليه يرهبه »<sup>(١)</sup>.

ويقرب منه قوله : « تنشأ عن بقية شباب عاصف شيخوخة فاتنة ، فإن حياة الزوجين تشبه هذه الأنهار التي تكون عند منبعها بمنزلة التيارات الهادرة ، ولكنها عند المصب تصبح سواقي هادئة صافية »<sup>(٢)</sup>.

#### ٦ - العناية باللغة :

لم يكف جبيري بشيء كلفه باللغة ، فقد كانت له معها جولات ، إذ استأثرت باهتمامه ، وكتب فيها مقالات كثيرة ، واهتم بتتبع فصيح العامة<sup>(٣)</sup> ، فانطبع أسلوبه بها ، وصارت عنايته باللفظ ، وحرصه على روح اللغة ، من أظهر خصائص أسلوبه<sup>(٤)</sup>.

وقد كان يرى للألفاظ شأنًا كبيرًا في النثر والشعر ، فكان لذلك يحرص كل الحرص على تنقيحها ، لتوقف كثير من البلاغة عليها ، كما يقول<sup>(٥)</sup> ، « فهمه ولذته اللغة والألفاظ قبل كل شيء ، ثم التصوير بعد هذا الهم وهذه اللذة »<sup>(٦)</sup>.

وحين تقرأ في كتبه تروك ألفاظ كثيرة ، اختارها جبيري وانتقاه انتقاء الناقد البصير ، وفي بعضها غرابة ، ولكنها مستمحة وغير غامضة .

(١) من مقال (فن العمل) في مجلة الثقافة المصرية ، ص ١٠ ، من العدد ٤٧ ، السنة الأولى ، ١٠ شوال ١٣٥٨ هـ .

(٢) من مقال (فن الشيخوخة) ص ٩ ، مجلة الثقافة .

(٣) راجع فن المقالة في هذا الفصل من البحث .

(٤) انظر : أنا والنثر ١٨٨ .

(٥) انظر : المصدر السابق ١٧٥ .

(٦) انظر : المصدر السابق ٤١ " بتصرف " .

وتأمل هذه الطائفة من الألفاظ ، التي ترددت عنده : إضجاج - أحفة ( جمع حافة ) - شميم ( مصدر شمّ ) - جبرياء ( بمعنى جبروت ) - يكررها ( بمعنى يكررها ) - رابعة - أهاضيبي - عجيل ( بمعنى مستعجل ) ، رسوم بائخة ( أي مندثرة ) - نحوم عليه ونلوب ( أي نور ) - انبعق ( انتثر فجة ) - نُدحة ، وكلها فصيح ، وأغلبها واضح في سياق الكلام .

ولكي يتضح ميله إلى حسن الصياغة ، وانتقاء الألفاظ الجزلة ، والعناية باللغة ، أورد هذه الجملة القصيرة وهي قوله : « لا أنكر أنني قرأت دُفقةً خمسين صفحة من كتاب دون أن يواثبني اليسير من التعب أو الضجر »<sup>(١)</sup> ، وهي صياغة أدبية بارعة ، لاتخلو من وثبات من الخيال المحلّق .

وقد ساقه اهتمامه باللغة ، وحرصه على الفصاحة ، إلى أن يقترح ألفاظا عربية فصيحة ، لتوضع محل ألفاظ شائعة أقل منها فصاحة ، واستخدمها في كلامه ، مثل كلمة ( دخيلة ) في قوله : « يجب على المؤرخ الأدبي أن ينسلخ من دخيلته »<sup>(٢)</sup> وقد شرحها بقوله : « دخيلة الرجل مذهبه وجميع أمره ، وقد استعملتها بدلا من الشخصية »<sup>(٣)</sup> .

ويتفرّع عن اهتمامه باللغة ، سمة أخرى داخلة في السمة السابقة ، وهي :

#### ٧ - العناية بحروف التعدية :

التعدّي هو تجاوز الفعل فاعله إلى مفعول يحتاج إليه ويكمّله ، ومن طرق تحقق التعدية حرف الجر ، نحو ذهب بزيد أي أذهبته<sup>(٤)</sup> ، ولقد كلف جبري بتعدية الأفعال بالأحرف ؛ لأنه رأها سرّاً من أسرار جمال الأسلوب .

(١) من عرضه لـ "غادة الكاميليا" ص ٣٧٨ ، مجلة المجمع ، ج ٦ ، مج ١٠ ، وفي اللسان : ( جازوا دفقة واحدة أي دفعة واحدة ) .

(٢) مقال ( نقد المؤرخات الأدبية ) ١٦٤ ، مجلة المجمع ، ج ٣ ، مج ١٠ .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) معجم المصطلحات النحوية والصرفية ١٤٦ ، د . محمد سمير نجيب اللبدي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ، بتصرف .

يقول معلقاً على نص أعجبه لابن خلدون : « كنت أعنى بحرف التعدية فيه »<sup>(١)</sup> ، ويقول في موضع آخر : « وكنت أعنى العناية كلها بحروف التعدية ٠٠٠ وتقيدت بهذه الحروف في أكثر كتاباتي ٠٠٠ فما أذكر أنني كنت أستعمل فعلا دون التفتيش عن حرف تعديته »<sup>(٢)</sup> .

وهذا الاهتمام بحروف التعدية ، مظهر آخر من مظاهر الولع باللغة ، وتطلب الجزالة ، وإنك لتحس بعنوبة هذه الأفعال المتعدية بالأحرف ، وبخاصة إن كانت مما هجره الكتاب ، وتأمل ملاحظة أحرف التعدية في الأمثلة التالية من كلام جبري :

- « إنك تجد دمشق في ربيعها الطلق تهش بك »<sup>(٣)</sup> .

- « وقد طمحت الهمة به إلى طبع هذا الديوان »<sup>(٤)</sup> .

- « هذا ما حمل على الانزعاج عن سيف النولة »<sup>(٥)</sup> .

على أن حرصه على تصيّد أحرف التعدية ، أوقعه من حيث لا يشعر في الخطأ ، فجرت على لسانه أفعال متعدية بنفسها ، فعداها بالحرف ، ويظهر أنه تأثر بالعامية التي تكثر فيها مثل هذه الأساليب ، وذلك في قوله :

- « قال الذين أطبقوا له عينيه »<sup>(٦)</sup> ، وقوله :

- « قد تسرق له المال »<sup>(٧)</sup> . وقوله : « يفهمونه عليه في بعض الأديار »<sup>(٨)</sup> .

ومن سمات أسلوبه أيضا ، الميل إلى :

#### ٨ - استخدام الجمل الشعبية :

ويظهر أنه يضمنها في أدبه ، رغبة منه في اكتساب عدد كبير من القراء ، وحتى يدنو بأدبه من العامة ، ومن أمثلة هذه الجمل ، قوله - لما وعده أحدهم على

(١) أنا والنشر ١٩ .

(٢) المصدر السابق ١٨ .

(٣) من مقالة عن رواية (سيد قريش) ١٢٦ ، مجلة المجمع ، ج ٢ ، مج ١٠ .

(٤) من مقالة بعنوان (مطبوعات حديثة ، قيس بن الخطيم) ٢٤٨ ، مجلة المجمع ، ج ١ ، مج ١ ، بتصريف يسير ، وراجع هذه الفعلين في (معجم الأفعال المتعدية بحرف ، لموسى الأحمدى ٢١٩ و ٤١١) .

(٥) حياة المتنبي ٤٤٩ ، مجلة المجمع ، ج ٨ ، مج ١٠ ، وزعجت عنه فانزعج : أي أقلقته حتى خرج (معجم الأفعال المتعدية بحرف ، ١٤٩ ، لسان العرب مادة "زعج" ) .

(٦) أنا والنشر ٥٥ .

(٧) بين البحر والصحراء ٥٠ .

(٨) أحمد فارس الشدياق ٨١ .

الغداء ، ثم لم يره - « هذا وجه الضيف<sup>(١)</sup> كما نقول في دمشق »<sup>(٢)</sup> ، وقوله - لما دعت امرأة للغداء ثم اعتذرت لعارض - : « فاستغربت هذا الأمر ، وقطعت لها ورقة<sup>(٣)</sup> كما نقول في عاميتنا »<sup>(٤)</sup> ، ومنها أيضا قوله : « كنت أدخل محلا صاحبه من أهل الصين ، فيستقبلني بوجه يقطع الرزق<sup>(٥)</sup> »<sup>(٦)</sup> .

كما عمد جبيري إلى استخدام بعض ألفاظ العوام ، نظرفاً حيناً ، كقوله إن أحد أصدقائه رأى خطأ لم يعجبه ، فقال : « هذا ما كنا نسميه في صغرنا خرابيش الجاج<sup>(٧)</sup> » ، أو اضطرارا حيناً ، كاستخدام كلمة ( سيران )<sup>(٨)</sup> ، التي تمنى أن يجد مايقابلها في الفصحى<sup>(٩)</sup> .

وقريب من هذه السمة كل القرب سمة أخرى هي :

#### ٩ - إحياء فصيح العامي :

فقد كان يعمد إلى اللفظ العامي المؤلف ، فيستعمله لأنه فصيح<sup>(١٠)</sup> ، فتجده يقول مثلا : « والسيارات محشوكة<sup>(١١)</sup> في جميع الطرق »<sup>(١٢)</sup> ، أو « فظهر عليها أثر التلبك<sup>(١٣)</sup> » ، أو « راسخة لاتتلحح »<sup>(١٤)</sup> ، إلى غير ذلك من الكلمات ، ومنها :

- (١) كناية عن يذهب ولا يعود .
- (٢) أرض السحر ٢٢٨ .
- (٣) كناية عن انتهاء العلاقة بينهما .
- (٤) أرض السحر ٢٢٨ .
- (٥) كناية عن مظاهر العبوس في وجهه ( الحكم والأمثال الشعبية في الديار الشامية ، ص ٢٢٠ ، محمد سعيد مبيض ، دار الثقافة ، الدوحة ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ) .
- (٦) أرض السحر ٢٢٩ .
- (٧) المصدر السابق ٢٥٧ ، وخرابيش الجاج أي : عبث الدجاج .
- (٨) بمعنى النزهة خارج البلد للأكل والشرب واللهو ( أرض السحر ٢٦٠ ) .
- (٩) انظر : أرض السحر ٢٦٠ .
- (١٠) انظر : فصول في اللغة والأدب ١٢٧ .
- (١١) أي مجموعة ( اللسان ) .
- (١٢) أرض السحر ١٤٥ .
- (١٣) المصدر السابق ٣١ ، والتلبك : الاختلاط في الرأي ( اللسان ) .
- (١٤) أرض السحر ١٤٩ ، والتلحح : هو التزحزح ( اللسان ) .

الفشفة<sup>(١)</sup> ، والتخبيص<sup>(٢)</sup> ، والتنكيت والنكتة<sup>(٣)</sup> ، والشبّاك ، وربما أعاد الكلمة الواحدة مرارا ، مثل كلمة : تبجح<sup>(٤)</sup> ، والمطمطة<sup>(٥)</sup> .

ويظهر أنه يقصد بذلك إحياء هذه الألفاظ ، وإعادتها إلى فصاحتها ، وهو بذلك يقرب الفصحى من العامة ، ويساعد على نشرها بينهم ، وفي نظري أن هذا مذهب جيد ومُجَدِّد ، ولا أدل على جدواه من أننا لانشر بقرابة هذه الألفاظ حينما نجعلها في سياق فصيح .

وعلى رغم حرص جبيري على فصاحة لغته ، وصحة ألفاظه ، أجد عنده بعض الكلمات الأجنبية ، التي تسربت إليه ، وبخاصة في كتاب ( أرض السحر ) ويبدو لي أنه استخدمها ؛ بسبب عدم معرفة البدائل الفصاح لها ، ولكن هذا لا يعفيه من التبعة ، فمنها : الفوتبول ، والتنس ، والبزبول ، والسمنت<sup>(٦)</sup> .

#### ١٠ - السخرية :

حيث يذهب إلى أن بث السخرية والتهمك في الكلام مما « ينشئ لنا لذة ترويض قوانا العقلية »<sup>(٧)</sup> ، وقد بيدي إعجابه بقصة أو كتاب ، لما يراه فيهما من تهكم<sup>(٨)</sup> ، فهو إذاً من محبي هذا النهج أولاً ، ومن مؤيديه ثانياً ، فهل كان من رواده ثالثاً ؟ !

(١) وردت هذه الكلمة في : العناصر النفسية في سياسة العرب ، انظر ص ٧ ، وتعني ضعف الرأي ( اللسان ) .

(٢) وردت في مقالته ( أطوار النقد ) ص ١٧٢ ، مجلة المجمع ، ج ٢ ، ص ١٠ ، وتعني : الخلط ( اللسان ) .

(٣) وردت الكلمتان في : أحمد فارس الشدياق ، انظر ص ٤٦ ، ومعنى النكتة : الفكرة الطييفة المؤثرة في النفس ( المعجم الوسيط ) .

(٤) انظر هذه الكلمة مثلاً في : العناصر النفسية في سياسة العرب ١٧ ، وراجعها في الحكم والأمثال الشعبية في الديار الشامية ٨٠ ، وتعني التوسع ( اللسان ) .

(٥) انظرها مثلاً في : عرضه لقصة ( فاوست ) ٣٢٠ ، مجلة المجمع ، ج ٥ ، ص ١٠ ، وتعني مد الكلام وتطويله ( اللسان ) .

(٦) انظر هذه الكلمات على الترتيب في : أرض السحر الصفحات ٦٩ و ١٤٤ و ١٣١ .

(٧) الجاحظ معلم العقل والأدب ١٩١ .

(٨) انظر : عرضه لقصة ( فاوست ) ص ٣١٩ ، مجلة المجمع ، ج ٥ ، ص ١٠ .

الحق أنه لم يكن ذا باع طويل في أسلوب التهكم والسخرية ، فلم ينتهجه إلا في مقالات قليلة ، وذلك عائد في نظري إلى ما جُبل عليه من الجد والتوقّر ، ولذا فإن مانجده عنده من أساليب السخرية ، لا يخوّله لأن يعد من الكتاب الساخرين .

ومع قلة نماذج هذا النهج ، فهي قوية الإيحاء ، شديدة الوقع والوطأة على المسخور منهم ، كقوله في صفة رجل لقيه في أمريكا : « نحيف البنية ، قوي المعدة »<sup>(١)</sup> ، وقوله في آخر : « دعوت الله في السر والعلانية ، أن ينجيك من كل نهشة ومن كل لسعة ، ولكنني تذكرت بعد هذا مناعة جسمك ، فلم أخف أن تقتلك الأفاعي والعقارب ، وإنما خفت أن تموت هذه المساكين إذا هي نهشتك »<sup>(٢)</sup> .

وقد يصف وصفا ساخرا ، كقوله عن صورة للشدياق : « أرى طريوشا حميديا منحدرًا إلى الأذنين ، كأنه يقطينة على رأس صاحبه ، وعينين كأنهما جوزتان خضراوان ناضرتان ، تشيع السخرية فيهما ، وأرى لحية قد بعثرت شعراتها على الخدين ، ومن تحتها عقدة ملتفة إلى الصدر يحسبها الإنسان لأول وهلة ضفدعا على منضدة التشريح »<sup>(٣)</sup> .

وهنا عمد - كما هو ظاهر - إلى الصور الحسية المادية ، فلان أسلوبه ، وله نص شبيه به في وصف إحدى النساء<sup>(٤)</sup> ، أضرب عن إيراد صفحا ، لما فيه من تهافت وإسفاف .

ومن سخرياته التي وفق فيها ، ماجاء في قصة الرجلين اللذين طعنا في القرآن الكريم واللغة العربية ، فناقشهما جبري نقاشا حادا ، ثم قال في النهاية : « ونفصا علينا صفاء الليلة ، وذهبا بعد أن قام كل منهما بالواجب في التأكيد والتنقيص »<sup>(٥)</sup> .

(١) أرض السحر ٣٥ .

(٢) أنا والنثر ١٨٥ .

(٣) أحمد فارس الشدياق ٤٢ .

(٤) انظر : أنا والنثر ١٨٣ .

(٥) أرض السحر ١٢١ .

## ١١- الاستطراد :

يظهر لي أن قراءة جبري الفاحصة المتمعنة في كتب الجاحظ ، وتمرسه بأسلوبه ، جعلته يكتسب بعض سماته ، ومنها الاستطراد ، ومن العجيب أن تكون أكثر استطرادات جبري في كتابه عن الجاحظ !

ومعلوم أن الاستطراد خروج عن المنهج ، ولذلك يعد عيباً عند جمهرة المؤلفين في هذا العصر ، ولكن جبري لم يكن يهمه أن يسير على منهج معين ، بل إن منهجه هو الانطلاق مع خواطره دون خطة مرسومة .

وكثير من استطراداته تلك لامتت إلى الموضوع الرئيس إلا بسبب ضعيف ، مثل حديثه عن موقف المسلمين من اليهود والنصارى ، وبغضهم للأولين ، وحبهم للآخرين ، حيث أطال فيه إطالة فاحشة<sup>(١)</sup> .

ومثل حديثه عن قدم اللغة العربية ، وكونها لم تنشأ دفعة واحدة في العصر الجاهلي ، ودعوته إلى دراسة اللغات السامية ولغات الأمم التي خالطها العرب ، وكل ذلك بعيد عن موضوع كتابه<sup>(٢)</sup> .

غير أن بعض استطراداته تكون لصيقة بالموضوع الأصل ، وهنا يكون الاستطراد أخف وطأة ، وأقرب إلى الروح العلمية ، ومثال ذلك : أنه لما تعرض للحديث عن الشورى بعد عمر ، خرج إلى ذكر الحياة النيابية في عصرنا وما يدور في فلکها<sup>(٣)</sup> .

## ١٢- الإطالة في النقل والإكثار منه :

يلجأ جبري إلى الإطالة في النقل ، حتى يستحوذ على صفحة كاملة أو صفحتين ، ولاتجد له في أثنائها سوى تعليقات لاتقيم ولاتقعد<sup>(٤)</sup> ، وكثرة النقل وطوله يذهب بشخصية المؤلف ، ويضعف أثرها في القارئ ، ويجعله بمثابة ناسخ ليس غير .

(١) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ٨٩ .

(٢) انظر : المصدر السابق ٢١٦ ، وانظر نموذجاً آخر في ص ٢٦ .

(٣) انظر : العناصر النفسية في سياسة العرب ٢٢ ، ومثلاً آخر في دراسة الأغاني ٧٥ .

(٤) انظر مثلاً : دراسة الأغاني ٢٤٦ و ٢٤٨ . وانظر كذلك : مقال ( تمازج الثقافات ) ص ١٠٥ ، مجلة

المجمع ، ج ٢ ، ص ١٠ .

### ١٣ - إشراك القارئ في إصدار الأحكام :

يسعى جبري كثيرا إلى إشراك القارئ في إصدار الأحكام ، حتى لاتكون التبعة عليه وحده ، كقوله : « أفيرى القارئ الكريم كيف يدرك معاوية أسرار النفوس !؟ »<sup>(١)</sup> ، وقوله : « وأنا أترك لكم الحكم على الفرق بين الوصفين »<sup>(٢)</sup> ، ومثله قوله : « إنني أترك الجواب عن ذلك للقارئ نفسه »<sup>(٣)</sup> .

إن هذا الأسلوب أسر للقارئ ، لأنه يشعره بتواضع الكاتب ، واحترامه لرأي قرأته ، وعدم محاولته فرض الرأي دفعة واحدة ، وكأنه - بذلك - يحاول أن يستلهم القارئ الرأي<sup>(٤)</sup> .

وقد يعنّ لجبري رأي في مسألة حرجة ، فيقف نون إصدار الحكم مطلقا ، خشية التبعة<sup>(٥)</sup> ، وربما عرض رأيه مشوبا بشيء من الحذر ، كقوله - عند الحديث عن جعل عمر الخلافة شورى - : « وإذا لجأت إلى الحرية في الكلام ، قلت : خاف التبعة ففر منها »<sup>(٦)</sup> .

ومما يتصل بهذه السمة ، أنه يحاكم الآراء التي يعرضها ، ولا يقبلها على علاتها<sup>(٧)</sup> ، ويرد كثيرا منها<sup>(٨)</sup> ، غير أن هذه الصرامة في قبول الآراء ، يقابلها تراخ شديد في تمحيص بعض الروايات ، فتجده يثبت أحداثا لا يقبلها العقل ولا التاريخ ، وقد يجري حكمه على عصر كامل من خلال خبر واحد ، وأوضح نموذج على ذلك حديثه عن « المرأة في كتاب الأغاني »<sup>(٩)</sup> .

تلك أهم السمات الأسلوبية ، التي اتسم بها نثر شفيق جبري ، وتبقى الإشارة إلى بعض اللوازم الأسلوبية عنده ، وبعض المآخذ عليه .

- (١) العناصر النفسية في سياسة العرب ٢٢ .
- (٢) أين تعلم المنتهي ٢٤٠ ، مجلة المجمع ، ج ٦ ، ص ١٠ .
- (٣) أحمد فارس الشدياق ١٧٥ .
- (٤) انظر مقال : ( شفيق جبري وأراؤه النقدية ) ص ٩٥ .
- (٥) انظر : العناصر النفسية في سياسة العرب ٤٦ .
- (٦) المصدر السابق ٢١ .
- (٧) انظر مثلا : دراسة الأغاني ٢٢٦ .
- (٨) انظر مثلا : الجاحظ معلم العقل والأدب ٢١٥ ، ودراسة الأغاني ٢٠١ .
- (٩) انظر : دراسة الأغاني ١٤٧ ، وانظر أيضا : ص ١٧٢ .

### لوازم اسلوبية :

يرى جبري أن لكل أديب مفردات ومصطلحات وتراكيب ، لا يحيد عنها ، وربما استعملها وكررها دون أن يشعر<sup>(١)</sup> ، وهذا القول منطبق عليه كل الانطباق ، ولعله يعني نفسه من طرف خفي ، حتى لا يؤاخذ أحد على ما في نثره من جمل وألفاظ تتردد كثيرا .

وأول لوازمه الأسلوبية ، أنه يكثر من أسلوب الاستفهام ، إما لغرض تعليمي : كأن يقدمه بين يدي الفكرة التي يزمع مناقشتها ، مثل : « أين طلب الجاحظ العلم في صغره ؟ ! »<sup>(٢)</sup> ، أو « أفلا يزال منكم على ذكر ما قلته لكم ؟ »<sup>(٣)</sup> .

وقد يكون الاستفهام تقريريا أو إنكاريا ، أو لغرض آخر ، وتأمل هذه الطائفة من الاستفهامات ، تجد مصداق ذلك :

« فأبي كلام أقوى من هذا الكلام ؟ »<sup>(٤)</sup> - « أفلا نجد في هذا الكلام أصول الأدب الإنساني ؟ »<sup>(٥)</sup> - « أي معنى لم يقم في صدر الجاحظ ، وأي فكر لم يزدحم على ذهنه ؟ »<sup>(٦)</sup> - « أي تشبيه أنطق من التشبيه بالآلة والصنم ؟ »<sup>(٧)</sup> .

والتعجب كذلك واحد من لوازمه الأسلوبية ، مثل قوله : « ما أجد عقله ! وأسلم تفكيره ! »<sup>(٨)</sup> ، وقوله : « فما أعذب قوله . . . ! ما أعذب هذه اللياءات . . . »<sup>(٩)</sup> .

ومن لوازمه أيضا ، استخدام لام الأمر المقترنة بالفعل المضارع ، مثل : « فلنقرأ هذه الخطبة »<sup>(١٠)</sup> ، « لننظر كيف كان كتابنا »<sup>(١١)</sup> ، « فلنشهد انتفاض تلك العصور »<sup>(١٢)</sup> ،

(١) انظر : الجاحظ معلم العقل والأدب ٢١٢ .

(٢) المصدر السابق ٣٦ ، وانظر كذلك ص : ٦٠ .

(٣) مقالة ( أطوار النقد ) ص ١٦٦ ، مجلة المجمع ، ج ٣ ، مج ١٠ .

(٤) أحمد فارس الشدياق ٧٩ .

(٥) المصدر السابق ٩٩ .

(٦) الجاحظ معلم العقل والأدب ٢٨ .

(٧) أحمد فارس الشدياق ٩٨ .

(٨) المصدر السابق ١٠١ .

(٩) بين البحر والصحراء ٨١ .

(١٠) العناصر النفسية في سياسة العرب ٤٨ .

(١١) بين البحر والصحراء ٧٢ .

(١٢) دراسة الأغاني ١٠٦ .

« فلنبحث عن عاداتهم . . . ولنشهد مجلسا من تلك المجالس »<sup>(١)</sup> ، وهذا الأسلوب كثير جدا ، وليس المقام مقام حصر .

كما أنه يُكثر من إيراد المفاعيل المطلقة<sup>(٢)</sup> ، وأدوات الشرط<sup>(٣)</sup> ، ويستخدم ضمير الجمع كثيرا ، عند الحديث عن نفسه<sup>(٤)</sup> .

ومن الجمل والألفاظ التي تعد لوازم في أسلوبه :

ظلمات بعضها فوق بعض - اختمار الفكرة ، والرأي المختمر ، واختمرت اللغة - امتد بي نفس الكلام - ذهبْتُ بين سمع الأرض ويصرها - سجيس الليالي<sup>(٥)</sup> - نلمس عظمته بأيدينا - تراخى أمد الكلام - طرُز - مهابٌ - مندوحة ، ومنتدح ، ونُدحة - اضرب بعينك .

ومن لوازم أسلوبه ، أن يختم مقالاته وبعض مباحث كتبه ، بقوله : والخلاصة كذا وكذا أو : وخلاصة هذا الحديث كذا .

وعندي أن تكراره لبعض تلك اللوازم ، تجاوز الحد ، وفاض عن الحد المقبول ، حتى وقع في نمطية مزعجة .

لقد كان أسلوب جبيري رفيعا رصينا ، ولكن النقص مستولٍ على جملة البشر ، فلذلك تجد لديه بعض الهنات والضعف في الصياغة ، ولكنها لا تشكّل ظاهرة ، فمن ذلك ، قوله : « وإذا دخل هذا السمك فاه الحوت أمن الفوائل »<sup>(٦)</sup> ، ولست أدري كيف ساغ له - وهو الأديب الطلعة - أن ينطق بهذا الغلط !

وفي موضع آخر ، تجده يعيد كلمة « موسيقا » ثمانى مرات في أربعة أسطر<sup>(٧)</sup> ، مما أفسد جمال التعبير .

(١) المصدر السابق ١٤١ .

(٢) انظر مثلا : مقال ( تاريخ الأدب ) ١٥٥ ، مجلة المجمع ، ج ٢ ، ص ١٠ ، وانظر كذلك : العناصر النفسية ، عدة صفحات مثل : ٢٠ و ٤٠ .

(٣) انظر مثلا : العناصر النفسية ٢٨ .

(٤) انظر مثلا : أحمد فارس الشدياق ٢٠ و ٢١ .

(٥) يقال : لا أتيك سجيس الليالي أي آخرها . ( اللسان ) .

(٦) أنا والنثر ٤٤ .

(٧) انظر : مقال ( سحر العبقورية ) ٢٢٥ ، مجلة المجمع ، ج ٤ ، ص ١٠ .

ومن الجمل الضعيفة أسلوبيا عنده هذه الطائفة :

- « فإذا دلت هذه الحكاية على شيء ، فإنها تدل على عقل معاوية »<sup>(١)</sup>.
  - « فلا فائدة لنا في زيارتهم التي يزورونها لنا »<sup>(٢)</sup>.
  - « فلما أشبعت هذه الطبيعة مجامع حواسه ، فقد أروت طائفة من فنه »<sup>(٣)</sup>.
  - « فما كان يجري في ذلك العصر ، لقد تولى في كتاب الساق على الساق تدوين سيرته »<sup>(٤)</sup>.
- وبعد ، فقد كان شفيق جبيري ، متميزاً بأسلوبه ، ضارياً في جمال لغته وحلاوة ألفاظه بسهم وافر ، وما أصدقه حين قال متحدثاً عن هذا الأسلوب : « إنه أسلوب سهل بسيط واضح ، لا يخرج عن روح اللغة وعبقريتها »<sup>(٥)</sup> .

---

(١) أنا والشعر ٨٢ .

(٢) من مقال ( فن العمل ) في مجلة الثقافة المصرية ص ١٠ .

(٣) بين البحر والصحراء ١٧ .

(٤) أحمد فارس الشدياق ٥ .

(٥) أنا والنثر ٢٥ .